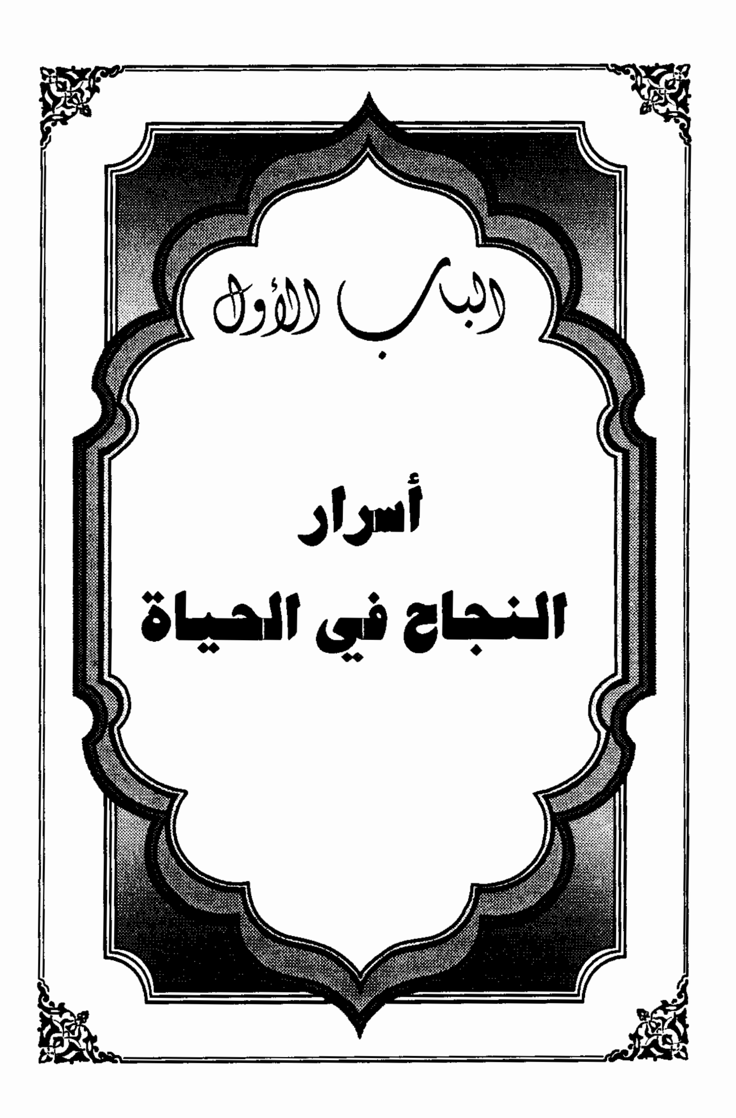
خواطر وعبر

العبيكان


الباب الأول
أسرار
النجاح في الحياة



ليس بالارتجال

التقييم الـذي يتدلى على جدار غـرفتك يحمل «سنـة ١٩٩١»، ولو أردت أن يحمل هذا التقويم «سنـة ٢٠٩١»، فسيكون عليك أن تنتظر قرناً كامـلاً ليتحقق لك ذلك. ومن الممكن أن تكتب -بيدك- أية سنة تريـدها على تقويم غـرفتك، ولكن يجب أن تنتظر مائة سنـة حتى ترى على جدار غرفتك تقويم سنة ٢٠٩١ المعترف به لدى العالم.

وهذه هي قضية تعمير الشعـوب وإنهاض الأمم. إنه من الممكن أن تبني مستقبلاً خيـالياً للأمـة بفيضانات الشعـارات والخطب والقصائد الحماسيـة، ولكن لا يمكن تعمير مستقبل حقيقي لـلأمـة بدون جهـد مخطط طويل الأجل.

إن تعمير الأمـة كـزرع شجرة البلـوط، حيث يجب عليك أن تنتظـر قرناً كاملاً بعد زرع بذرة البلوط حتى تصبح شجرة مكتملة عملاقة.

وإذا كنـا نـريد أن تصبح أمتنـا قـويـة راسخة فـلا بـدَّ أن نخلق في أنفسنا عـزيمة الجهـد المخطَّط الطويـل الأمد. أما الـذين يـريدون أن يصلـوا إلى الهدف النهـائي بمجـرد بدء الجهـد، فيجب أن يعـرفـوا أن جهدهم هذا ليس سوى وثبة نهايتها الموت والفناء، ولا شيء غير ذلك.

فَرْق التفكير

يقول الشاعر الإنجليزي فريدريك لينغبرج (١٨٤٩-١٩٢٣) في بيت شعر له :

نظر شخصان عبر نافذة واحدة

أحدهما رأى الوحل والآخر شاهد النجوم .

ونفس الشيئ قد عبرَّ عنه شاعر فارسي بطريقة أفضل حين قال :

الفرق بيني وبينك هو الفرق بين سمعي وسمعك

فأنت تسمع غلق الباب وأنا أسمع فتحه .

والزهور توجد مع الأشواك . ونفس الشيئ ينطبق على المجتمع البشري ؛ فمهما بدت الأحوال الاجتماعية غير مساعدة إلا أنه يرافقها دائماً جوانب مساعدة . والأنسان الذي يتمتع بالنظرة الظاهرية يرى الأشياء السطحية وحدها ، ويفشل في مشاهدة الجوانب العميقة ، أما الذي يتمتع بالنظرة العميقة فيرى الجوانب البعيدة ويكتشف الجوانب المساعدة بالإضافة إلى تعرفه على الجوانب غير المساعدة .

ويوجد في هذا العالم الوحل كما توجد به النجوم ، والأمر متروك للناظر ليرى شيئاً ويتجاهل آخر . وينبعث صوت واحد فيظن الأبله أن الباب قد صُدَّ ، أما العاقل فيرى أن الباب قد فتح له .

كل القضايا تنشأ في العقل ويمكن القضاء عليها داخل العقل بشرط أن يتمتع الإنسان بالتفكير السليم .

والحقيقة أن هذا العالم امتحان للعقل . . والذي يستخدم عقله سيهتدي إلى سبيلٍ ومخرج ، أما الذي لا يستخدم العقل فلا مصير له إلا الضياع .

وتثور الأمواج في البحر، فمن أراد تسيير سفينته في البحر عليه مواجهة الأمواج والطوفان ليصل إلى هدفه المنشود . وتوجد الحيوانات المفترسة في الغابات ، وما على الحيوانات الأخرى التي تعيش بالغابة إلا أن تهتدي إلى سبيل للحياة والنجاة ، وذلك بالابتعاد عن الحيوانات المفترسة والاحتماء بالأحراش .

وعين هذا الوضع ينطبق على المجتمع البشري ؛ فيوجد بين البشر أناس من كل الأنواع ، تتصارع مصالحهم ، وبالتالي تنشأ عوامل العداء بينهم . هذا الفرق في الحياة الاجتماعية وجد دائماً وسيبقى دائماً ولايمكن القضاء عليه .

ولا سبيل للحياة والنجاة في ظل هذا الواقع إلا أن يتبنى الإنسان مبدأ البحث عن النجاة رغم أنف العراقيل ، فعليه أن يستميل الناس رغم مخالفتهم إياه ، وعليه أن يكتشف سر الحياة الهانئة رغم كل الآلام ، ومهما بلغت العدوات والمؤمرات ضده عليه أن يمضى قُدُمَاً مؤمناً بأنه - بأعماله الإيجابية - قادر على سحق كل العوامل السلبية .

ولا يبالي الإنسان في هذا العالم بالأشواك لكي يصل إلى الزهور، وهو يسهر على صحته وعافيته رغم تفشي ما لا يحصى من الجراثيم

والأمـراض، وهكـذا عليـه ألا ييأس من الأحـوال غير المسـاعـدة وألا يضيع وقته في الشكاوي والاحتجاجـات، وعليه أن يتواءم مع الحقائق التي لا يستطيع تغييرهـا، وعليـه أن يبحـث عن طـريق آخـر لمسيرتـه مبتعداً عن العراقيل والأحجار، وعليه ألا ينفجر إزاء كلمات أعدائه بل يتعـامل بهم بـالتـدبير والحكمـة، وعليـه أن يقنع بـالقليل اليـوم لكي يُعطَى الكثير غـداً، وعليـه أن يصبر على العـداوة اليـوم لكي يتحـول أعداؤه اليوم إلى أصدقائه غداً.

محاسبة الغير

قال رئيس جمهورية الهند الأسبق الدكتور ذاكر حسين (١٨٩٧-١٩٦٩) إنه حين عُيّن مديراً لجامعة عليكره الإسلامية قابله بعض العاملين بالجامعة، وقالوا له: إن عدداً من العاملين بالجامعةَ رجعيون وطائفيون، وهم يحطمون ويسيئون إلى سمعتها. ولو طردنا هؤلاء فإن جو الجامعة سيتحسن تماماً . . فطلب منهم الدكتور ذاكر أن يقدموا له قائمة بأسماء هؤلاء.

ثم قابلته جماعة أخرى من العاملين بالجامعة وقالت له: إن كثيرين من أساتذة الجامعة شيوعيون وملحدون ولو طردتَهم فإن جو الجامعة سيتحسن تماماً . . فطلب منهم الدكتور ذاكر أن يعدوا له قائمة بأسماء هؤلاء.

وبعد فترة تقدمت الجماعتان بقائمتين، وكانت كلتاهما تحتوي على أسماء مائتي شخص، بينما لم يكن العدد الكلي للمدرسين والأساتذة يتجاوز حينذاك ثلاثمائة شخص. فقال الدكتور ذاكر حسين: كيف يمكنني أن أطرد أربعمائة شخص من مجموع ثلاثمائة شخص!؟

وحين روجعت القائمتان اتضح أن هناك نحو ٥٠ إسما مشتركا بين كل من القائمتين . . فقال الدكتور ذاكر لهؤلاء: «قولوا لي: من سيعلّم الأولاد لو طردتُ هؤلاء كلهم؟».

هذه الواقعة تكشف عن حالة أمتنا الأخلاقية. فالمسلمون اليوم هم أبطال الهمِّ والتفكير عن «الآخرين»، ولا شخص يريد أن يفكر عن «نفسه». فلدى الكل قائمة طويلة عن مجرمين ومذنبين من «الآخرين»، بينما لا أحد يملك قائمة بذنوبه وانحرافاته.

إن الشعب الذي يتمتع أفراده بمزاج «محاسبة الذات» تكون أموره كلها صحيحة وسليمة، أما الشعب الذي يكتسب أفراده مزاج «محاسبة الغير» فإن شؤونه تتدهور ومصالحه تضيع.

فمحاسبة الذات تُصلِح الدِّين والدنيا معاً، أما محاسبة الغير فتُضيّع الدنيا والآخرة معا.

الفرصة الثانية

نشر مقال في عدد فبراير ١٩٨٧ من مجلة «رِيدَرْزْ دايجيست» بعنوان «تجرأْ على تغيير حياتك». وقد أورد كاتب المقال وقائع عديدة لرجال أصيبوا بالفشل في البداية، ولكنهم لم يفقدوا عزيمتهم، بل ركزوا أنظارهم على فرصة ثانية، ونجحوا في آخر الأمر بعد فشلهم الأول.

ويقول الكاتب في نهاية المقال: «الحياة مليئة بالفرص الثانية، وكل ما نحتاج إليه لأجل فرصة أخرى هي القدرة على التعرف على الفرصة الثانية وجرأة العمل».

والحياة علَمٌ على استخدام «الفرصة الثانية»، وهي حقيقة تنطبق على الأفراد تماماً كما تنطبق على الشعوب، والتاريخ الإنساني بأكمله مليء بوقائع تصدق على هذه الحقيقة. ولم يتمكن الإسلام في الدور الأول من فرصته بمكة، ولكنه استخدم فرصته بالمدينة فصنع تاريخه. ولم تجد الشعوب الغربية فرصتها في الحروب الصليبية، فاستخدمت الفرص العلمية، فوصلت إلى ما كانت تصبو إليه عن طريق الحروب الصليبية الفاشلة.

وكثيراً ما يضيّع الإنسان فرصته الأولى في هذا العالم؛ وذلك لنقص فيه، أو لعدوان الآخرين. ولكن ضياع الفرصة الأولى ليس إلا ضياع

فرصة واحدة وليس ضياع كل الفرص. ولو لم ييأس الإنسان بضياع الفرصة الأولى فهو سيفوز بسرعة بفرصة ثانية ليصل إلى هدفه المنشودة.

وليس من الحكمة محاولة استحواذ الفرص والمراكز التي تمكن منها آخرون، بل الحكمة في البحث عن فرص لم يستحوذ عليها آخرون.

وقد نشرت صحيفة «التايمز» الهندية في عددها الصادر في ١٣ أبريل ١٩٨٩ تقريراً من نيويورك يقول عنوانه: «محاولة اليابان لسبق الولايات المتحدة في مجال السوبر كمبيوتر». وقال التقرير: إن غلبة الولايات المتحدة في مجال السوبر كمبيوتر - أي العقل الآلي الخارق - أصبح مشكوك فيها الآن. وقال المحللون بإحدى المؤسسات الأميريكية: إن السوبر كمبيوتر الياباني سينزل إلى الأسواق في السنة التالية، وسيكون أسرع عقل آلي في العالم.

وقد سمى اليابانيون هذا السوبر كمبيوتر بـ(SX-X)، وهو يعمل بسرعة خارقة تبلغ عشرين ألف مليون حسابية عملية في الثانية الواحدة. وهذا الكمبيوتر الياباني أكثر سرعة بمعدل خمسة وعشرين في المائة من أسرع كمبيوتر أمريكي. ويمتاز العقل الآلي الياباني - إلى جانب دقته المتناهية - بسعره الرخيص.

وأهمية هذا السوبر كمبيوتر ليست محدودة بمجالات البحث العلمي والتنقيب عن النفط والتنبؤ عن المواسم، بل هو هام جداً في مجالات الأمن؛ لأنه يستخدم في عمليات صنع الأسلحة النووية.

وقد دخلت اليابان بهذا الكمبيوتر الخارق عصراً صناعياً جديداً. وأصبحت أجهزة الكمبيوتر «الجديدة» عتيقة وتقليدية الآن،

وأصبحت اليابان تتفوق على الـولايات المتحدة حتى في بعض المجالات العسكرية .

وكانت الـولايات المتحـدة قد دمـرت اليابـان سنة ١٩٤٥ بإنتـاجها «القنبلة الخارقـة» ، ولكنها لم تتمكن من سلب اليابانيين هـذا الإمكان ، وهو أن يصنعـوا الكمبيوتر الخارق ليحصلـوا على حياة جـديدة ويغيروا مجرى التاريخ خلال ٤٥ سنة فقط من هزيمتهم العسكرية . والتخريب - مهما بلغ حجمـه وطولـه- لا يقضي على فرص البنـاء الجديدة ، وقـوة البناء في كل الحالات أعظم من قوة التخريب .

تذكرة النجاح

يُطلَق على المواطنين الأمريكيين القادمين من البلدان الآسيوية وصف «الأمريكيين الآسيويين». وقد جاءت غالبية هؤلاء بعد سنة ١٩٦٥ . وتبلغ نسبتهم الحالية بين سكان الولايات المتحدة نحو ٢ في المائة. بينهم يهود وبوذيون وكونفيوشسيون إلى جانب أتباع الديانات الأخرى.

ولو ظن كل فريق من هؤلاء أن بناء مستقبله كامن في أن يصل شخص من فريقه إلى منصب رئاسة الجمهورية لرأوا أن باب رقيهم مسدود تماماً في الولايات المتحدة؛ وذلك لأنه يجب أن يكون الرئيس الأمريكي مواطناً أصيلاً، أي أن يكون قد ولد بالفعل من أبوين أمريكيين، وهذا لا ينطبق على المهاجرين الآسيويين. ولو كان المهاجرون الآسيويون قد جعلوا من «الرئاسة» هدفهم الأوحد لأصيبوا بخيبة أمل عظيمة، أو بدأوا نضالاً عقيماً لتغيير الدستور الأميريكي والمطالبة بإلغاء النص الذي يشترط كون الرئيس مواطناً أمريكياً أصيلاً، وذلك لكي يمكن لمرشحٍ من المهاجرين الآسيويين أن ينافس في انتخابات الرئاسة.

ولم يرتكب الأمريكيون الآسيويـون حماقة كهذه . لقد درسوا الأوضاع الأمريكيـة في ضوء أحـوالهم الخاصة فوجـدوا أنه لا يمكن لأفـراد أقلية مثلهم أن يصلـوا إلى منصب الـرئاسة ، إلا أنهم يتمتعـون بكل الفـرص للتقدم التعليمي . لقد اكتشفوا أن التعليم هو تذكرتهم للنجاح ، فركَّزوا كل طاقاتهم للحصول على التعليم ، ولقـوا نجاحاً كبيراً في هذا المجال . ورغم أنهم كانوا (٢) في المائة فقـط بين السكان إلا أنهم احتلوا (٢٠) في المائة من مقاعد المؤسسات التعليمية العليا .

وهذا هو منهج تحقيق النجاح في هذا العالم . فيحدث دائما ، في هذا العالم أن أبـواب بعض الفرص تكون مفتـوحة للمرء ، بينما تكـون أبواب بعض الفـرص الأخـرى مســدودة في وجهـه . وذكـاء المرء يتمثل في أن يتقدم باستخدام أبواب الفرص المفتوحـة أمامه . . أما لو ناطح الأبواب المســدودة فهي لن تنفتح له بل سيتهشـم رأسه . إن التعليم هـو تذكـرة النجاح في عـالم اليوم بصورة عامـة ، ويمكن لكل إنسان أن يحصل على هذه التذكرة .

وهذا السر في رقي الأفراد هـو عين السر في رقي البلدان والشعوب ، وتقدم اليابان أفضل مثال يمكن تقليده في هذا المضمار.

ومن الكتب الكثيرة التي أُلِّفت في السنـوات الأخيرة كتاب للمـؤلف الأمريكي عزرا فوغل بعنوان «اليابان كرقم واحد» (Ezra Vogel, Jpan as Number One) وقـد شرح المؤلف في هـذا الكتـاب كيف نهضت اليابان بعد هزيمتها الشاملـة في الحرب العالمية الثانية لتمثل تحدياً للبلد الفاتح نفســه . وكما يقول المؤلف : «أصبح اليابانيـون سادة التغيير بدلاً

من أن يكـونوا الضحايـا . التأثير الأجنبي يحطم البلاد الأخـرى ، ولكن هذا التأثير جدّد شباب اليابان» (ص ٢٥٦) .

ويرى المؤلف أن السر في هـذا النجاح الياباني العظيم هـو أن اليابان غيرت مجال عملها بعـد هزيمتهـا العسكريـة والسياسيـة ، فركـزت كل اهتمامهـا على التعليم . ويقـول المؤلف في الفصل الثـالث من هـذا الكتاب : إنه لو كان لنا أن نحدد عـاملاً واحداً للنجاح الياباني المعاصر فهـذا العامل يتمثـل في الدافع الـذي لا حـدود له في الشعـب اليابـاني للبحث عن العلم واكتسابـه . ومما قـاله المؤلف : «حين يأتي زائر أجنبي إلى اليـابان ، فغـالبية اليـابانيين الـذين يتعـاملون معـه يفكرون بصـورة جبلّية : «مـاذا يمكنني أن أتعلم منه» . والملايين الثـلاثة من اليـابانيين الذين يسـافرون إلى الخارج كل سنة ، يبحثون عن أفكـار صغيرة جديدة يمكنهم أن يطبقوها في بلدهم» (ص ٢٩) .

إنه تحدٍّ وليس ظلماً

من أقوال إيدموند بورك (١٧٢٩-١٧٩٧): «إن الذي يصارعنا يقوِّى من أعصابنا ويشحذ مهاراتنا؛ إن عدونا هو نصيرنا».

وهذا عين ما أشار إليه سعدي الشيرازي في «كلستان» بصورة رمزية في إطار قصة، فقال: «ألا ترى أن الهرة حين تعجز تقلع عين الأسد».

هناك أسلوبان لردِّ الفعل حين تواجه سلوكاً معادياً من الآخرين، الأول: أن تعتبره «ظلماً»، والآخر: أن تعتبره «تحدياً»؛ ولو اعتبرته «ظلماً» فستنطلق شاكياً محتجاً، أما لو اعتبرته «تحديا» فستنطلق مواجهاً.

ولا ترى العقليةُ الشاكيةُ أن مجال عملها يتعدى الصراخ ضد الجانب الآخر، فهي تستخدم كل ما فيها في معجمها من الكلمات الاحتجاجية. أما العقلية المواجهة فتتجه نحو العمل، فتحاول فهم الأوضاع، وتبحث عن الردِّ الصحيح لإفشال مخططات الطرف الآخر بالحكمة والتدبير.

وعقلية الشكوى والاحتجاج تقود صاحبها إلى طرقٍ يبعثر فيها قواه في أنشطة صاخبة عقيمة، بينما التحدي والمواجهة توقد الكفايات الكامنة في صاحبها فتعطيه همة جديدة فتقوِّيه حتى يغلب الضعيفُ على القوي والهرةُ على الأسد.

والعالم المعاصر هو عالم المواجهة: الشكوى هنا تقود الإنسان إلى الهلاك، والتدبير يقوده إلى البناء والرقي.

ولو كنت تمشي على طريق ما، واعترتك أشواك الأحراش، فماذا تعمل؟ أنت لا تشكو بل تسلك طريق التدبير، وأنت لا تحتج على الأحراش، بل تفكر في كيفية التخلص من أشواكها.

والعاقل يعرف أنه يجب عليه أن يسلك هذا الأسلوب عينه تجاه البشر أيضا. فقد يحدث وأنت تعيش بين البشر أن تصطدم بأحدهم، أو أن يؤذيك أحدهم، أو أن يعتريك شعور إذاءه بأنه لم يُعْطِكَ حقك. وفي كل مرحلة كهذه علينا أن نسلك سبيل التدبير وليس الشكوى.

كل قضية في الحياة تمثل «تحدياً» بدلاً من كونها مجرد «اعتداء» شخصٍ على آخر. ولو اعترتك مشكلة ما ونظرت إليها على أنها قضية اعتداء فستنشأ فيك عقلية الشكوى والاحتجاج، وقد يصل بك الأمر إلى اليأس والقنوط، فتظن أنه لم يعد بوسعك أن تعمل شيئاً ما في الأحوال القائمة. إن عقلية الشكوى تقود صاحبها إلى اليأس، واليأس يقود إلى الانتحار النفسي.

أما على العكس من هذا لو اعترتك مشكلة ما، فاعتبرتها تحدياً، فستستيقظ الكفايات الكامنة فيك، وستتملكك همة جديدة لمواجهة الأوضاع القائمة. ولو كان عقلك يسير على طريق سلبي في الحالة الأولى، فهو سوف يسير على طريق إيجابي في الحالة الثانية. وهذا - بكلمة واحدة- هو السر في النجاح والفشل في هذا العالم. . الذي يتغذى على الشكوى والاحتجاج فلا مصير له إلا الدمار، أما الذي

ينشغل بالبحث عـن التدبير عند مـواجهة المشكـلات، فسوف ينتصر حتماً في نهاية الأمر. فلكل عقدة حل في هذا العالم ولكل مشكلة تدبير.

العطاء للمُعطاء

نشرت صحيفة «تـايمز أوف إنديـا» في ملحقها بتـاريخ ١٨ مارس ١٩٨٩ واقعة تـاريخية ذات درس كبير. وهي تتعلق بمجـيء الفرس أو «البـارسيين» إلى الهنـد. فحين جـاء هـؤلاء إلى الهنـد أول مـرة، نـزلـوا بالشاطئ الغـربي. وكان (يا دورانا) هو ملك غوجـرات آنذاك. فتقدم إليه زعيـم جماعة الفـرس طالباً منـه الإذن لجماعته بـالتوطـن في رحاب دولته. فقـدَّم إليه الملك -رداً على هذا السـؤال- كوباً مليئـاً بالحليب. وكـان هـذا يعني أن دولتـه مليئة بـالفعل بـالبشر، وليس هنـاك متسع للمزيد.

ولم يردّ زعيم الفرس على هذا بكلام، بل أخذ ملعقة من السكر فحركها في الكوب، ثم أعاده إلى الملك. كـانت هذه إشارة بلغة الـرموز بأننا لا نرمي إلى الاستيـلاء على حليبكم بل سنزيد من حـلاوته، وأننا سنـزيد من حـلاوة الحياة في بلـدكم. وبعـد هذا سمح لهم الملك بـالسكن في أنحاء غوجرات.

وقد مَّر على هـذه الواقعة أكثر من ألف سنة. ويقول لنـا التاريخ أن ما قاله زعيم الفـرس قد حققه العامـة من قومه، فلم يرفع البـارسيون لواء الاحتجاج والمطالب في هذا البلد، بل عملوا على رقيه بالجهد الصامت الـدؤوب. لقد بـذلـوا جهداً أكثـر من جهـود الآخـرين، فتقدمـوا في مجالات التعليم والتجارة والصناعة، فزادوا من ثروة البلاد ورقيها.

هناك مجموعات كثيرة في الهند المعاصرة تعتبر من الطوائف «الآخذة»، أما البارسيون فقد أصبحوا طائفة «مِعْطاءة» نتيجة جهدهم وعملهم. وهذا هو سر الحياة. فالذي «يعطي» هو الذي «يأخذ» في هذا العالم. والذي يزيد من حلاوة حليب الآخرين هو الذي يفوز بالإكرام. أما الذين لا يعطون الآخرين إلا المرارة فلا يحصدون في العالم إلا ما يعطونه للآخرين. ولو أردتَ أن تحصل فعليك أن تخرج معطياً، أما لو خرجت مطالباً فلن تحصل على شئ.

التقيت في ٢٤ أغسطس ١٩٨٨ بالسيد/ ب. د. ملهوترا (المولود سنة ١٩٣٥) وهو مدير المطبوعات بالمجمع الأدبي الهندي منذ نحو ٣٠ سنة. أخبرني أنه تأخر في مكتبه ذات يوم، وحين خرج للذهاب إلى بيته كانت الساعة قد قاربت الثانية عشر ليلاً، فأوقفه رجل من الشرطة على إحدى الشوارع، وأمره بإبراز رخصة القيادة.

وحين أدخل السيد ملهوترا يده في جيبه خرجت بطاقة أخرى إلى جانب بطاقة القيادة فأمسك الشرطي بالبطاقتين، وسأله: ما هي هذه البطاقة الثانية؟ وكانت هذه البطاقة الثانية بطاقة التبرع بالعين عند وفاة صاحبها، وهي تحمل توقيع المعطي، وتقول: إنه يتبرع بعينيه للشعب، ويرجو إعلام مستشفى العيون فور موته ومساعدة المستشفى في تحقيق أمنيته.

وكان رجل الشرطة يتحدث معه بكثير من الغلظة قبل هذا، أما حين نظر إلى بطاقة التبرع بالعين تغيرت لهجته، فلم يفحص بطاقة القيادة بل قال لصاحبها أن يمضي في سبيله.

يعتبر التبرع بـالعين من الأعمال النبيلـة في هـذا العصر، وتظهـر النداءات العاطفيـة على التليفزيون تحبذ التبرع بها . وهكـذا حين شاهد رجل الشرطة بطاقـة التبرع بالعين لدى السيد «ملهوتـرا» عرف أنه رجل شريف يحب الخير للآخرين . لقد أصبحت بطـاقة التبرع علامة على أن صـاحبها «يعطي» الآخـرين ، وهـذا هو الشيئ الـذي ليّن قلب الشرطي لصالحه .

العطـاء في هـذا العـالم من نصيب الـذي يعطي . فـالـذي يعطي الآخرين هو الذي يحصل من الآخـرين ، وهو يستحق العطاء حتى ولو عقد العزم فقط على العطاء .

أسلوب الأسد

نشرت صحيفة «تايمز أوف إنديا» في عددها الصادر في ١٨ مارس ١٩٩١ تقريراً حول الأسود، جاء فيه أن الأسود لا تحب المشي على الأعشاب، وذلك لخوفها من أن تصيب الأشواك أقدامها الناعمة، وهي - لذلك - تمشي دائماً على الطرق المفتوحة والشوارع المعبَّدة.

قد تربت الأسود في مدرسة الطبيعة، وهي دائماً تتبع الأسلوب الذي علّمها خالق الكون بصورة جبلّية؛ ولذلك يصح القول أن أسلوب الأسد هذا هو الأسلوب المحبَّب لدى الطبيعة. لقد أُودع هذا الأسلوب الحذر في جبلة الأسد، وقيل للإنسان أيضاً بلغة الشريعة السماوية: «خذوا حذركم».

والهدف الخاص الذي خلق الله تعالى هذا العالم من أجله اقتضى أن تكون هناك طرق معبدة مفتوحة وأخرى مليئة بالأشواك والأحراش. وستبقى هذه الأحراش والأشواك في هذا العالم على وجه الضرورة. ولا يمكن القضاء عليها. والذي يجب علينا هو اتباع الأسلوب الذي يتبعه الأسد والذي أودعه الله تعالى في جبلّته، أي تحاشى الأحراش الشائكة ومواصلة المسيرة على طريق مفتوح ونظيف.

والأسد يمشى متحاشياً أعشاب الغابات، وعلينا نحن معشر البشر أن نواصل مسيرة حياتنا مُعِرضين عن فتن الآخرين من البشر.

فينبغي ألا نُغضِب أحداً بعملنا، ولو غضب علينا الناس وجب علينا تبريد غضبهم بالصبر، وأن نتجنب تبعات غضبهم بالتدبير الحكيم. والذي يفعله ملك الغابة ليس جُبناً بل هو عين الشجاعة. والإنسان الذي يختار هذا الأسلوب في مجتمعه ليس جباناً، بل هو الشجاع بعنيه. فأسلوب الإعراض هو أسلوب الأسد، وليس أسلوب ابن آوى.

ولله تعالى قانون واحد في كونه، والمطلوب أن يتبعه البشر وغير البشر على حدٍّ سواء، ويتخلص هذا القانون في بناء الحياة بالإعراض عن المنغصات.

لو دخلت حديقة الورود ستبهرك زهورها العبقة بالأريج وأوراقها الخضر الجميلة.. ومع هذا تجرحك أشواك أشجار الورود أو تنغرز في ملابسك.

وهناك أسلوبان للتعامل مع هذا؛ أولهما: أن تعتبر الجنايني مسؤولاً عن وجود الأشواك في حديقة الورود، والأسلوب الآخر: هو أن تعترف بأن هذه الأشواك نتيجة لقانون الطبيعة. ولو اعتبرت الجنايني مسؤولاً عن الأشواك فستنموا فيك عقلية الشكوى والتنفر، أما لو اعتبرتها نتيجة لقانون الطبيعة فستعترف بوجود الأشواك كحقيقة لا سبيل إلى تغييرها، وستحاول أن تصل إلى هدفك بالإعراض عنها.

إن وصفة معينة تنمي عقلية الاحتجاج، ووصفة أخرى تحثُّ على الحكمة والتدبير. ومن العبث الاحتجاج على أشواك الورود، فهي ستبقى ما بقيت أشجار الورود وزهورها، وهكذا ستطرأ المنغصات في الحياة الاجتماعية ما بقي البشر على ظهر المعمورة.

ولا حل لهذه المنغصات -الباغثة على الشكوى- إلا الإعراض عنها، ومواصلة مسيرة الحياة بتجاهلها. فالمشكلات الاجتماعية من هذا النوع جزء من خطة الخالق في كونه، وهي لن تنتهي قبل يوم القيامة، إلا أنه يمكننا مواصلة حياتنا بالتعايش معها و تحاشيها.

والأحمق يشتبك بالمنغصات ويصارعها، أما العاقل فيمضي قدماً معرضاً عنها. وهذا -بكلمة واحدة- هو سرُّ الفشل وسرُّ النجاح في العالم. فنتيجة الاشتباك هنا الفشل، ونتيجة الإعراض هنا هو النجاح.

ليس بالارتجال

- أمتنا جاهلة وأمية فلِمَ لا تقف لإزالة أميتها؟
- كم نلتَ من التعليم؟
- لسوء الحظ ، لم أنل قسطاً وافراً من التعليم .
- فما عليك إلا أن تنتسب إلى إحدى المعاهد ، فبذلك ستتخلص أمتنا من أحد الأميين في صفوفها .

هذا الحوار الذي دار بين شخصين يدل على الشيء الذي ينبغي لكل واحد منا أن يقوم به . . وهو أن يبدأ (بنفسه) في العمل دون أن يطلب من (آخر) القيام به .

وأفراد الشعوب الحية يفكرون على منوال : «ماذا ينبغي عليّ أن أفعله» . أما لو بدأ أفراد أمة ما يبحثون «عما يجب على الآخرين أن يقوموا به» فاعرف أن تلك الأمة في حالة احتضار. إنَّ حركتها هذه حركة «نزع» وليست بحركة حياة .

عجز الإنسان

وقع حادث جوي فظيع في اليابان في ١٢ أغسطس ١٩٨٥ حين تحطمت طائرة كبيرة من طراز البوينغ ٧٤٧ ، كانت متجهة من طوكيو إلى أوزاكا حين ارتطمت بجبل في طريقها . فلم يبق من ركابها على قيد الحياة إلا بضعة أشخاص ، أما البقية -وعددهم ٥١٩- فقد لقوا حتفهم على الفور.

ومن التفاصيل التي نشرتها الصحف حول هذا الحادث آنذاك أن سيدة يابانية تسمى ماريكوشيراي -البالغة من العمر ٢٦ سنة- كانت من بين الهالكين ، وكان من الأمتعة التي وجدت في حطام الطائرة جدول مواعيد الطائرة ، وكان هذا الجدول في يد السيدة المذكورة خلال لحظات الحادث الأخيرة ، ووجدت على هامش هذا الجدول كلمات بخط يد السيدة ، لم تأت عليها النيران . وهذه الكلمات هي : «أنقذْني رعب . رعب . رعب» (تايمز أوف إنديا ، ٢٦ أغسطس ١٩٨٥) .

لقد ورد في القرآن الكريم : ﴿**وخلق الإنسان ضعيفاً**﴾ (النساء : ٢٨) . والإنسان ينسى ضعفه هذا في أحواله العادية ، فيغتر بنفسه ويخرج عن حدوده ، ولكن حين يصاب بموقف حرج يعود إليه الشعور بأنه ضعيف لاحيلة له ، فيدرك أنه ليس قائماً وباقياً في هذا العالم على أساس قدراته وطاقاته وحدها . . وقد مرت لحظة حرجة كهذه على تلك السيدة اليابانية .

والإنسان يمر بلحظات كهذه في مختلف مراحل حياته، لكي يدرك وضعه ومكانته في هذا العالم، ولكي يختار طريق الواقعية فيعيش متواضعاً إزاء غيره من البشر الذين يشاركونه وجهَ البسيطة . . ولكن الإنسان يتواضع بصورة وقتية حين تمرُّ به لحظة حرجة، ثم لا تكاد تلك اللحظة تمرُّ عنه حتى يقوم هذا الإنسان مغروراً يتحدى إرادة الله ويعتدي على حقوق البشر.

والإنسان الذي يستخلص النتيجة «الكلية» من هذه الوقائع «الجزئية» والوقتية هو الذي يُوفَّق للصلاح في هذا العالم. فالفائز في هذه الحياة هو من يعمم هذه التجربة الشخصية الوقتية على حياته كلها. عليك أن تستخلص درساً وعبرة ونصيحة من حادثٍ وقتي عابر لتقضي حياتك كلها في ضوء تلك التجربة.

تجنب الاستفزاز

يـوجد أكبر عـدد من الأسود في الهنـد في غابـات «غير» Gir . وقد أُنشئت هنـا منطقـة محرَّمـة مفتـوحـة لسكـن الأسـود، حيث لا يجوز اصطيادهـم. وكـان يوجـد بهذه الغابـات أول من (٢٠) أسداً في أوائل القرن العشرين، ولكن كان بها (٢٨٠) أسـداً حسب إحصاء أُجري في مـايو ١٩٩٠ . وقـد أصبح هؤلاء الأسـود مصدر خطـر كبير على البشر القاطنين بـالقرب من هذه الغـابات. ويقول تقـرير نشرته تـايمز أوف إنـديـا (٢٢ أغسطس ١٩٩٠): إن أسـود هـذه المنطقـة قتلـوا (٢٦) شخصاً وجرحوا (١٤٠) شخصاً خلال السنتين الماضيتين.

وألفت لجنة بعد هـذه الوقائع لدراسة الأمر، وقـالت هذه اللجنة في تقريـرها: إنه صحيح أن الأسـود جرحوا وقتلـوا عدداً كبيراً من البشر، ولكنها لم تكن نتيجة وحشية الأسود، بل نتيجة استفزاز البشر وإثارتهم لهذه الأسود.

الأسد حيـوان وحشي، وهو خطر على حياة أي إنسـان يقترب منه، ولكن الأسـد - رغم وحشيتـه - يعيش وفـق فطـرتـه، وهي ألا يهاجم إنساناً بدون استفزاز وإثارة.

وهـذه من دروس الطبيعـة التي تقـول لنـا كيـف نتجنَّب ظلم «الحيوانـات» البشرية، والتـدبير المؤكد الـواحد لتجنب ظلـم الإنسان

الوحشي هو أن تتركه يعيش وفق فطرته. فكل إنسـان يكون تابعاً لفطرته قبل الإستفزاز والإثارة، أما بعد الاستفـزاز والإثارة فهو يخرج عن فطرته ويتمـرّد عليهـا. فكأن الفطـرة نفسهـا تمنـع كل إنسـان من الظلم والفساد. فلِمَ إذن تستفزه وتستعديه وتأخذ الأمور بيديك؟

الأسد حيوان لا ضرر منه قبل إثارتـه، أما بعد الإثارة فهو يتحول إلى آكل البشر.. لا تستفز الأسد وبالتالي ستسلم من عدوانه.

حافظْ على المسافة

تجري مختلف أنـواع المركبـات الآلية على الشـوارع في وقت واحـد، وهي تتحـرك في مختلف الاتجاهـات المتباينـة. ولـذلك وضعت لـوائح المرور؛ لأمن وسـلامة كل الـذين يستخدمـون الشوارع العـامة. وقـد علِّقت لافتـات ببعض تعليمات المرور على مختلف الشـوارع وتقـاطع الطرق العامة في كل أنحاء العالم؛ لكي يتقيد بها المارّون في مسيرتهم.

وقد شاهدت لافتة من هذا النوع على إحدى شوارع دهلي، وكانت تقول: حـافظ على المسـافة Keep distance؛ أي حافظ على مسـافة معقولة مع السيارة التي تسير أمـامك. هذا الإرشاد المروري يحتوي على حكمة بالغة تتعلق بمسيرة الشوارع وبمسيرة الحياة، في آن واحد.

الإنسان لا يعيش وحيداً في هذا العالم، بـل هو يقضي حياته محاطاً بعـدد كبير من البشر، وكل إنسـان من هـؤلاء يسعى لتحقيق أهـدافـه الشخصية، وكل إنسان هنا يحمل بعض الأماني، وكل إنسان هنا يريد أن يسبق الآخرين في مسيرة الحياة.

وهـذا الـوضع يتطلب منـا أن نتمسك دائماً بمبـدأ «حـافظ على المسافـة» في حياتنا، وأن نحـافظ على بُعْدٍ معقـول من الآخرين؛ لكي نواصل مسيرتنا دون الاصطدام بأحد.

والقـرآن يطلق على هـذه الحكمة وصـف «الإعراض». ولـو لم تـراع حكمـة «الإعراض»، فمصـالحك ستصطـدم بمصالح شخص آخـر، وكلامك الفظّ سيثير شخصـاً آخر، وعـدم التزامك بـالحيطة سيربكك مع شخص ثالث، بدون لزوم.

والذي يحدث بعد اصطدام كهـذا في مسيرة الحياة هو عين ما يحدث على الشـوارع العامـة، أي: الحادث. وحـادث الشوارع يـوقف مسيرة السيارة وصـاحبها لبعض الوقـت، بل وقد يؤدي إلى القضـاء على حياة المسافـر.. وهكذا - نتيجـة عدم الالتـزام بالمبـدأ الآنف الذكـر - قد تتوقف مسيرة الحياة، بل ومن الممكـن أن تُحْرَم حتى من حياتك، فيزول وجودك من على صفحة التاريخ تماماً كما يـزيل الكاتب حرفاً صدر من قلمه على وجه الخطأ.

والأمثلـة كثيرة على هـذا في مـاضينـا وحـاضرنـا.. فكلما تعـدى شخص ما حدوده أصيب -بالضرورة- بنتيجة وخيمة.

«نِيتين واليـا» طفل في الثـالثـة من عمره يعيش مـع أبويـه بمنطقـة شـاهدره بشرق دلهي.. اصطحبـه أبواه ليشـاهـد حديقـة الحيوانـات بدهلي. شـاهد الطفل مختلف الحيـوانات إلى أن وصل إلى المنطقـة التي توجد بها الأسود، فتوقف هناك لـرؤية أسد أبيض، وما كان من الطفل إلا أن تسلل إلى داخل المقصـورة الخارجيـة ومـدَّ يـده إلى الأسـد في المقصورة الداخلية، فوثب الأسد نحـو يد الطفل وابتلعها. وهنا تدخل الـزوار وأخذوا يضربـون الأسد بما تـوفر هنـاك. ولكن قبل أن ينسحب الأسـد كـان قـد التهـم ذراع الطفل. وأُخِـذ الطفـل إلى إحـدى

المستشفيات حيث أجريت له عملية جراحية عاجلة، فبقي على قيد الحياة، ولكنه حُرِم للأبد من يده اليمنى. وألقى أبوا الطفل -حسب ما نشرته الصحف- مسؤولية الحادث على إدارة حديقة الحيوانات، وقالا: إن حارساً ما، لم يكن موجوداً لدى المقصورة عند الحادث . .

إن غالبية الناس، كلما وقع لهم حادث ما، يبحثون عن شخص آخر ليلقوا عليه المسؤولية، ولكن جهداً كهذا لاطائل من ورائه في هذا العالم، فلا يتقي الحوادث هنا إلا الذي يكبح نفسه، أما الذي يطلق العنان لنفسه فسيصاب بالحوادث بالضرورة، ولن يسعفه استخدام كل كلمات المعجم لتحميل الآخرين تبعات أعماله.

المقصورات في حدائق الحيوانات تهدف إلى فصل الزوار بمسافة أربعة أقدام من الحيوانات المفترسة، وذلك لكي لا يصاب الزوار بأي أذى عند مشاهدة هذه الحيوانات. وأيضاً هناك «مقصورات» للحدِّ من اندفاعنا على كل منعطف من الحياة، والذي يتوقف مدركا حدوده فلا خطر عليه، أما الذي يتجاوز تلك «المقصورات» فلن ينجو من الحوادث، سواء أكان في حديقة الحيوانات أو خارجها.

أهمية الوقت

● ولـد اللورد «تشيستَر فِيلـد» سنة ١٦٩٤م بلنـدن وتوفى بها سنـة ١٧٧٣م. وقـد وجه تشيشتر فيلـد الكثير من الـرسائل إلى ابنـه فيليب ستينهوب يعلِّمه فيها «فن» النجاح في الحيـاة. وقد نشرت هذه الرسائل فيما بعد. ويقول اللورد تشيسترفيلد في إحـدى هذه الرسائل: «أوصيك بأن تحافظ على «الدقائق» من قوتك، ولو فعلت ذلك فإن «الساعات» ستحافظ نفسها بنفسها.

إنك لـو لم تضّيع «الـدقيقـة» مـن قـوتك فستنجـو «السـاعـة» من الضيـاع تلقائيـا، وذلك لأن «الساعـة» تتكـون من تجمع «الدقـائق». فالإنسان الذي يـراعي «الجزء» هو الذي يراعي «الكل».. وذلك لأن «الكل» عبارة عن تجمع الجزء تلو الجزء.

والناس عـامة ينسون الجزء والقليـل؛ بحثاً عن الكل والكثير. وهم يـركـزون أذهانهم على الكثير لـدرجـة أنها تتجـاهل القليل. والنتيجـة النهائية هي أن مثل هؤلاء لا يحصلون على شئ في نهاية الأمر.

عليك ألا تضيّع أيـة لمحـة من الوقت المتـاح لك. فأنت صـاحب «الشهـور» و«السنـوات» لـو جمعت «اللحظـات» من عمـرك وأحسنت استخـدامهـا. ولـو أضعت اللحظـات فـلا شـك في أنك ستضيع «الشهور» و «الأعوام».

لو كنت تضيع كل يوم خمس دقائق من كل ساعة من ساعاتك فإنك ستضيع ساعتين خلال يوم واحد، وستضيع ٦٠ ساعة في الشهر و ٧٢٠ ساعة في السنة. وهكذا الكلُّ منا يضيّع الكثير من الوقت المتاح له. والإنسان الذي يوهب ٨٠ سنة من العمر لا يحسن استخدام حتى ٤٠ سنة من عمره.

الوقت أعظم رأسمال متاح لك، فأنقذْه من الضياع. كل نجاح كبير عبارة عن تجمع نجاحات صغيرة كثيرة. ولو رضيت بالصغير من النجاح فسيكون النجاح الكبير من حظك لا محالة.



● ولد «المولوي لطف الله» في مدينة دهار اناغار بمنطقة مالْوَاه بالهند سنة ١٨٠٢ . وكان معلماً بسيطاً، ولم يتعلم اللغة الإنجليزية يوماً ما في مدرسة أو جامعة، ولكن سيرة حياته الذاتية - التي كتبها بنفسه بالإنجليزية - نشرتها شركة سميث إيلدرا بلندن سنة ١٨٧٥ بعنوان: «السيرة الذاتي للطف الله : سيد محمدي»

«Autobiography of Lutfullah: A Mohammedan Gentleman»

وكان هذا الكتاب يحوي مقدمة بقلم أحد الأدباء الإنجليز -هو المستر إيست ويك- الذي أثنى على لغة المؤلف الإنجليزية الصحيحة، وأعرب عن استغرابه أن يؤلف هندي كتاباً كبيراً بلغة أجنبية.

كيف حصل المولوي لطف الله على كفايـة تأليف بالإنجليزية ينشر بلندن ويثني عليه أديب إنجليـزي؟ السرُّ في هذا يكمن في المثل الأُردي الذي يقول: «الكثير عبارة عن تجمع القليل تلو القليل».

بـذل المولـوي لطف اللـه جهـداً شخصيـاً كبيراً في تعلم اللغـة الإنجليزية. وكان يعلم الموظفين الإنجليـز بشركة الهند الشرقية اللغات الهندُوستانيـة والفارسية والمَرْهَتِية، وكان عدد طلبتـه من الإنجليز يفوق المائة. ونتيجة علاقتـه هذا بالإنجليز نشأت فيـه رغبة في تعلم لغتهم، فأخذ يـدرس اللغة الإنجليزية بـالجهد الذاتي، إلى أن أتقنها بعـد جهد دام ٨ سنوات.

وهو يقول في كتابه: إنه لم تمرّ عليـه خلال هذه السنوات الثمانية ليلة إلا وحفظ قبل الخلـود إلى النـوم نحـو عشر كلمات إنجليـزيـة، ودرس بإمعـان عـدة صفحـات في كتـاب «قـواعـد النحـو» للـدكتـور غِيل كريست. و «عشر كلمات» في ظـاهر الأمـر عدد قليل، إلا أنها تُضْرَب في ٨ سنوات يصبح صـاحبها أديبـاً للغة أجنبيـة لدرجـة أن أهل اللغة يعترفون بإتقانه للغتهم.

تقبل المخاطر

ج . ر. د. تاتا، من كبار رجال الصناعة في الهند، يبلغ من العمر الآن ٨٥سنة. وهو لا يزال يقود طائرته، ويمارس رياضة التزلج على الجليد. ما السرُّ في صحته ونشاطه رغم بلوغه مثل هذه السن؟ الجواب بكلماته هو: «من الأشياء التي تُبقِي على شبابي : استعدادي أن أعيش حياة خطرة. عليك أن تكون مستعداً لتقبل المخاطر في التجارة والرياضة والزواج، بل وفي كل شيء آخر؛ لكي تعيش حياة جديرة بالاعتزاز» .

يقول مثل إنجليزي : «لا مخاطر: لا فائدة» No risk, no gain .. ، فكيف تقود المخاطرُ والأخطارُ الإنسانَ إلى النجاح والرقي؟ السر في ذلك هو أن المخاطر توقظ قوى الإنسان الكامنة، وتجعل من شخصٍ عادي إنساناً غير عادي.

والإنسان يصاب بالجمود والكسل لو لم يواجه الأخطار وامتنع عن تقبل المخاطر . . وستظل كفاياته الطبيعية راقدة، فسيكون بمثابة بذرة لم تتفتح، أو كذخيرة مائية لم تشهد الأمواجَ التي تؤدي بالتالي إلى طوفانات.

حين يواجه الإنسان الأخطارَ ويتقبل المخاطر يستيقظ الاستعداد الفطري المودَع في شخصيته، فيضطره ضغط الأحوال ليتحرك ويسخر كل قوته لحلِّ المشكلات والصعاب التي يواجهها.

هناك كفايات لا متناهية مودعة في كل إنسان، ولكن هذه الكفايات تكون راقدة في بداية الأمر وفي الظروف العادية. ولا تستيقظ هذه الكفايات إلا بالعمل على إيقاظها. والسبيل الوحيد لإيقاظ هذه الكفايات هو التصدي للتحديات المخاطر.

تبدو حياة العافية هادئة في ظاهر الأمر، ولكن الإنسان يدفع الثمن غالياً لركونه إلى حياة العافية، إذ تبقى شخصيته ناقصة، وهو بالتالي لن يصل إلى درجات الرقى التي بإمكانه الوصول إليها.

■ نشرت الصحف الهندية في ٦ يناير ١٩٩٠ أن «محمد أظهر الدين» عين قائدا للفريق القومي للعبة الكِركِيت، التي هي اللعبة الأكثر شعبيةً في الهند. وبالتالي رأس محمد أظهر الدين فريق الكركيت الهندي الذي زار نيوزلينداً. وكان هذا خبراً غريباً على مراقبي اللعبة في الهند، الذين كانوا يرون أن (سِرِيكانْت) سيفوز بهذا المنصب، فقد سبق له أن قاد الفريق الهندي بمبارة الشارجة وكأس نهرو، كما كان على رأس الفريق الهندي الذي زار باكستان، ولكن وقع اختيار لجنة الكركيت القومية على محمد أظهر الدين، البالغ من العمر ٢٧ سنة، وهو شاب من حيدر آباد، وقد أطلق عليه وصف «الولد العجيب» بسبب مهارته في اللعبة، وهو ثاني أصغر قائد لفريق الكركيت الهندي حتى الآن. وقد سبق أن تولى مسلم آخر – هو منصور علي خان بَتُودِي – هذا المنصب حين كان يبلغ من العمر ٢١ سنة.

والشيء الـذي أوصل أظهـر الـدين إلى هـذ المنصب الـرفيع في مجال الألعـاب الـريـاضية هـو استعـداده الـدائم لتقبل التحـديـات، بل ومواجهتها بالمزيد من القوة. وكان مستقبله كلاعب في الفريق الهندي قـد تعـرض للخطـر قبل شهـر فقط من وقـوع الاختيـار عليـه لقيـادة الفريق. . فقـد حدث في اللعبة الأولى للفـريق الهندي بمـدينة فيصل آبـاد بباكستـان أن فشل أظهر الـدين في إحراز أيـة نقطة، فخـرج من اللعبة بالصفر. ولكن حين جاء دوره للعب خـلال اللعبة الثانية أحرز أكثر من مائة نقطـة، وهو رقم قياسي في مثل هذه الألعـاب. وبذلك أنقذ أظهر الدين مستقبله كلاعب في الفريق الهندي القومي.

قال رئيس لجنة الاختيار الهنديـة (راج سينغ دونغاربور)، تعليقاً على اختيار أظهـر الديـن رئيساً للفريـق: إنه يحب المواجهـة والتحدي كما شـوهـد في ألعـاب بـاكستـان، حيث كـان على وشك أن يُمْنَع من اللعب، وهذه الكفاية هي من أهم خصائص القيادة.

هـذا العـالَم عـالم التحـديـات، ولا ينجح هنـا إلا الـذين يقـررون مواجهة التحـديات، وكلما زادت هذه الصفة في شخـص ما كلما كان نصيبه أكبر من نجاحات هذا العالم.



الباب الثاني

الحياة المسلمة

أسلوب المؤمن

أورد البخاري في «كتاب التفسير» من صحيحه رواية ضمن تفسير سورة الحجرات، عن ابن أبي مليكة قال: «كاد الخيِّران أن يهلكا، أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبيﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم. فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. قال: ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم** . . .﴾ الآية. قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمِع رسولَ اللهﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه».

هذا هو أسلوب المؤمن. فقد يرفع المؤمن صوته على الله ورسوله في حالة النسيان أو الجهل بخطورة ما يعمله، ولكنه يُخفِت صوتَه فور أن يعلم بخطورة ما يقوم به.

ولم يكن هذا مطلوباً في عصر الرسولﷺ فحسب، بل هو مطلوبٌ اليوم كذلك . . والفارق بين الحالتين هو أن رافعي الصوت كانوا يتلقون التنبيه والإنذار من الرسولﷺ مباشرة، أما اليوم فسيقوم بذلك شخص آخر باستخدام إشارات من القرآن الكريم والحديث النبوي. ولو بُيِّن حكم الله ورسوله أمام أي شخص اليوم فعليه أن يخفض صوته تماماً، كما قام به أهل الإيمان في العصر الأول.

الحياة الإسلامية

اختلف أهل التصوف فيما بينهما حول ما هو الأفضل : حياة العزلة أو حياة الاختلاط الاجتماعي .

ولكن لاشك في أن الحياة الإسلامية الحقيقية تقتضي المعيشة في المجتمع . وقد قال النبيﷺ: « لا رهبانية في الإسلام» . وقد منع الرسولﷺ عدداً من الصحابة الذين عبَّروا عن رغبتهم في الحياة الإنعزالية بعيداً عن الناس .

والحياة الانعزالية غير مقبولة ؛ لأن الإنسان يُحْرَم بسببها من التعليم والتعلم ، اللذين لا بدّ منهما للارتقاء الإنساني العقلي ، كما أن الإنسان ينشأ بهذا الأسلوب على الصبر على الشدائد ومواجهة العداوات ، ويجد الفرص لخدمة البشر.

لا يفصلنا عن الآخرة سوى جدار موهوم

يوجد في منطقة دَهْنباد بشرق الهند منجم للفحم مهجور منذ سنة ١٩٤٥ ، وقد امتلأ هذا المنجم بالمياه على مر الزمن. وفي سنة ١٩٧٤ حفر منجم جديد على مبعدة ٨٠ قدماً من هذا المنجم القديم.

وكان المنجم الجديد يحتوي على كل الآلات الحديثة، وقد جرى تخطيطه وتنفيذه بتنسيق مع البنك الدولي وخبراء أجانب. وكانت مسافة ٨٠ قدماً بين المنجمَيْن تعتبر فاصلة آمنة. ولكن في ٢٧ ديسمبر ١٩٨٥ حدث ثقب كبير في هذه الفاصلة بين المنجمين، وأخذت مياه المنجم الأول تتدفق إلى المنجم الثاني بقوة وسرعة رهيبتين، لدرجة أن المنجم الثاني امتلأ خلال ثلاث دقائق فقط . . ومات كل من كان داخل المنجم غرقاً، وعددهم ٣٧٢ من عمال ومهندسين، في هذه المياه التي بلغت كميتها مائة مليون غالون. ولم ينج إلا عامل واحد كان قد خرج من المنجم قبل الحادث بدقائق معدودة.

هذا الحادث صورة مدهشة لحياتنا نفسها. فنحن لا يفصلنا عن الآخرة سوى جدار الموت الموهوم، ونحن معرضون في كل لحظة لخطر انفجار هذا الجدار ليفجؤنا طوفان حقائق الآخرة بدون سابق إنذار، وحينذاك لن تسعفنا قوانا أو ألعابنا الكلامية، وسيقف كل منا دون

نصير أو شفيع أمام ربه. وكل الذين سحـرتهم مغريات الدنيا، حتى لم يعـودوا يقبلـون الاستماع إلى النصح والإنـذار، سيُقـذف بهم إلى جحيم الفشل والهلاك الأبـديين. ولن ينجوَ من هـذا المصير المحتوم إلا الـذي أعد نفسه لمواجهة يوم الحساب أمام خالق الكون.

أذكى النـاس هـو الـذي يُسَخِّر نفسـه إعـداداً لمواجهـة ذلك اليـوم الآخر. . .

الترتيب الحقيقي

خصصت دائرة المعارف البريطانية نحو سطرين من هـذه السطور التي تقرأونها لـذكر الخليفـة الثاني عمـر بن الخطاب. ولكن اسمـه هو الـواحـد والخمسـون في قـائمـة عظماء التـاريخ المائة الـذين اختـارهم الكاتب الأمريكي مايكل هارت في كتابه «المائة».

ويـوضح هـذا المثـال ورود اسم شخص مـا في التـاريخ أو عـدم وروده، أو وروده بتفصل أو بـاقتضاب ليس معيـاراً في حدِّ ذاتـه حول أهميتـه. فـالمؤرخـون أحيـانـاً يحذفـون شخصيـة مـا رغم أنها هي أهم شخصيـة كـان ينبغي عليهم تنـاولها بـالتفصيل، وهم يبرزون أحيـانـا شخصيات أخرى رغم أنها لا تستحق مجرد الذكر.

ومما كتبه الـدكتور مايكل هارت عن عمـر بن الخطاب: «انجازات عمر مؤثرة للغاية. ويمكن أن يتعجب البعض من أن عمر -المجهول تقريباً في الغرب- هو أعلى مكانـاً في هذه الدراسة من رجال مشهورين مثل شارلمان ويـوليوس قيصر. ولكن الحقيقـة هي أن فتوحـات العرب تحت قيادة عمر الباهرة -مع الأخـذ في الاعتبار اتساع رقعتها ودوامها- هي أهم بكثير من أعمال كلٍّ من قيصر وشارلمان» (المائة ص ٢٥٧).

لم تكترث دائرة المعـارف البريطـانيـة بعمـر الفـاروق، بينما اعتبره مايكل هارت الشخصية الـواحدة والخمسين بين عظماء التاريخ المائة. واسمه هو الثالث في قائمة عظماء التاريخ الإسلامي.

ما أكثر عباد الله الـذين يعتبرهم الكُتَّاب والمتحدثون غيرَ ذي أهمية حتى لـذكـر أسماؤهم. ولكن سيتصحـح هـذا الخلل يـوم القيـامـة، وسيكتب اسم الكل هنـاك في مكانـه الصحيح الـذي يستحقه حقـا، بدلاً من المكان الذي وضع فيه في الدنيا نتيجة أهواء البشر.

الدنيا دار امتحان

ولـد عمر بن بحـر بن محبوب الكنـاني (١٦٣-٢٥٥هـ) بـالبصرة، وتوفي بها، وهو يعرف عمـوما باسم «الجاحظ»، ويُعتبر من أئمة الأدب العربي، وكـان حريصا على مطالعـة الكتب لدرجة أنه تـرك كتاب على صــدره حين مات مفـولجا. ومن كتبـه «البيان والتبيين»، وقـد كتب في مقدمته الدعاء التالي:

«اللهم إنـا نعــوذ بك من فتنـة القـول، كما نعــوذ بك من فتنـة العمل. ونعوذ بك من التكلف لما لا نحســن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن. وتعـوذ بـك من السـلاطـة والهذر، كما نعــوذ بك من العي والحصر».

الدنيا مكـان امتحان، فالامتحان جـزء -بأسلوب أو آخر- من كل شيء هنا. ولـذلك يجب على الذي يخاف مـن بطش الله يـوم الآخرة أن يعوذ به تعالى في كل معاملـة من معاملاته، وأن يستنصر به في كل شأن من شؤون حياته.

وامتحـان الدنيـا الحقيقي ليس في مـا «حصل» عليه شخص مـا أو «أضــاعـه»، بل الامتحان الحقيقـي هو في ردِّ فعلـه إزاء «الحصـول» أو «الضيـاع». ويجب عليه أن يحتـاط في قولـه تمامـاً كما يحتاط في عملـه.

ويجب عليه أن ينظر إلى ما يقوم به من «عمل» بنفس المعيار الذي يستخدمه إزاء ما «لا يعمله» . . يجب عليه أن يقيم الدليل على عبوديته لله تعالى، حين يكون قادرًا على غيره من البشر تماماً كما يقيم الدليل حين يكون عاجزاً أمام آخرين من البشر.

النجاح في الدنيا امتحان، والفشل في الدنيا امتحان كذلك. فالإنسان هنا يحاسَب على عمله كما يحاسب على ما لا يقوم به من عمل.

« قل: اعملوا .. »

قد أنشأ اللـه تعالى كونـه على أُسُسٍ غايـةٍ في الإحكام والدقـة. فلا تنبت شجرة مـا بطريقة سحريـة، ولا تقفز كرة من كـرات الكون فجأة من مكانها إلى موقع آخر . .

وفي مثل هذا الكـون المنظم نحن ننتظر ميلاد «الصـالحين»، الذين سيأتـون بالمعجزات لإصـلاح أحوالنـا . . نحن نبحث عن «قـائد» فذٍّ يخلق للأمة مستقبلاً جديداً بإشارة من عصاه السحرية . .

على الـذين يعيشون بـآمـالٍ كهذه أن يعـرفـوا أن مثل هـذه الوقـائع الطلسمية المعجـزة لن تحدث في عالم الله هـذا. ولو كانـوا يفضلون أن يعيشوا متشبثين بالأوهام فما عليهم إلا أن يرحلـوا عن كوننا هذا إلى كون آخر يطابق أوهامهم.

النقـد

لماذا يغضب النـاس من النقد الذي يـوجه إليهم؟ السبب في ذلـك هو أنهم يعتبرون النقد بمثـابة الإهانة. ومـا كانوا ليغضبوا لـو اعتبروا النقد اختلافاً في الرأي.

ومن أقوى العـواطف الكامنـة في نفس كل إنسان أن يـرى نفسه عـزيزاً كريماً، وهـو لا يحب الإهانة لنفسـه بأي حال من الأحـوال. وهو حين يسمع أو يقرأ نقـداً موجهـاً إليه فهـو يعتبره -نتيجة نفسيتـه المذكورة- هجـومـاً على كرامتـه ووقـاره. وهـذا هو السبب في أنـه يشتعل غضبـاً بمجـرد سماع النقد، ويحاول أن يسكـب كل ما لـديـه من غضب على ناقده.

ولا شك في أن النقد من أمرَّ الأشيـاء لكل إنسان، ولا فرق في هذا بين العـوام والخواص، وهنـاك نوعـان فقط من النـاس الـذين ينجـون من الغلو عند النقد.

أولهما: الإنسـان الـذي يخاف اللـه تعـالى حق الخوف، وهـو الإنسـان الذي يدرك عظمـة ربه أعمق الإدراك لدرجلـة أن وجوده البشري يفقد كل أهميـة في نظره، فهـو قـد آمن بصغره وهـوائه نتيجـة إيمانه بعظمـة الله. ومزاجه هـذا جُنّة ضد انفعاله واشتعالـه غضباً عند سماع النقد. فلِمَ سيغضب لـو كان النقد تصغيراً لـه، فهو قـد صغّر نفسـه بالفعل بإدراك عظمة خالقه.

أما الإنسان الآخر الذي لا ينفجـر عند سماع النقد فهو: ذلك الإنسان الـذي تمكن منـه المزاج العلمي بمعنـاه الحقيقي. والعلم يعني دراسـة الحقائق الخارجية الطبيعية. وعقلية عـالم الطبيعة تقول بأن الحقيقة هي مـا يجده في الخارج وليس ما هـو مـوجود مسبقـاً في عقله. هـذا المزاج العلمي يسلب من الإنسـان العـالِم حبَّـه للـذات، ويجعلـه ميّـالاً إلى الـواقعية. ونتيجـة هذا المزاج العلمي أنـه حين يُواجـه مثل هذا العـالِمُ النقدَ فهـو ينظر إليـه بطريقـة موضـوعية بفصل ذاته عـن ذلك النقد، ويتوجه مخه إلى حقيقة مغزى النقد وليس كونـه جارحاً لذاته. أما الذي يشتاط غضباً بسماع النقد، فهو يقيم الـدليل على أنه لا يتمتع بالتقوى ولا بالمزاج العلمي، ولو تعرض للنقد فهو حريٌّ بأن يُنقَد.

زلزلة أشد

نشبت النيران في منطقة أَديليد من أستراليا في فبراير ١٩٨٣ ، فحرقت ٧١ شخصاً أحياء، وحوّلت ثمانية آلاف شخص إلى لاجئين دون مأوى . وقال أحد رجال الإطفاء الذين شاركوا في إطفاء هذه النيران : «إن الإنسان هنا يقف عاجزاً في مواجهة الطبيعة . وقد يبدو الأمر درامياً إلا أنه لم يكن أي مقدار من الوسائل المادية والشجاعة البشرية أن تسعفنا هنا» (الغارديان، ٢٧ فبراير ١٩٨٣) .

وما قاله رجل الإطفاء هذا حول النيران ينطبق بصورة أشد على الزلازل . فالزلازل تعريف أولى بقوة الله اللانهائية، التي سستتجلى يوم القيامة . . فسيحين وقتٌ يحطِّم اللهُ تعالى هذا العالم بزلزال عام وأشد، وسيقف الإنسان عاجزاً تمام العجز أمامه .

ستندثر الجبال يومذاك كذرات من رمال . وستطغى موجات البحر على البر من جراء التلاطم الشديد . وأفخم المدن ستنهار كقشة في طوفان . ولن يكون في العالم كله من ملجأ يلجأ إليه الإنسان للنجاة من ذلك الزلزال العظيم .

وسيكون ذلك نهايةً لهذا العالم وبدايةً لعالم جديد . وكل ما حصل عليه الإنسان في العالم الراهن هو للامتحان، أما ما سيحصل عليه في العالم القادم فهو جزاء لما قام به في حياته الدينوية .

وسيتجلى خالق الكـون ومالكه في ذلك اليـوم ليحاسب كلَّ البشر. وسيتم الفـرز بين البشر . . الصـالحون في جـانب والأشرار في جـانب آخر. وسيكتب للصـالحين حياة طيبة وللأشرار حيـاة سوء وألم وشقاء. وسيكون على الكل أن ينعم بإنعامه، أو أن يشقى بجزائه إلى الأبد.

زلزال اليوم نذير بالزلزال الأشد القادم. والعاقل هو من يرى الغد في مرآة اليوم فينصرف إلى الإعـداد لغده قبل حلوله . . فلا فرصـة للإعداد إلا اليوم، بينما الغد سيكون فرصة للجزاء والعقاب لا غير.

والمعتبر من الزلزال هو من يرى في زلزلة اليوم زلزالَ الغد.

أهمية الاتحاد

روى أبو سعيد الخدري أن الرسولﷺ قال: «إذا قمتم (للصلاة) فاعدلوا صفوفكم، وسدُّوا الفُرَج».

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنه: «إن مَن وصل صفّاً وصله الله، ومن قطع صفّاً قطعه الله».

وروى أنس بن مالك أن رسول اللهﷺ قال: «رصّوا صفوفكم وقاربوا بينها وحاذوا بالأعناق، فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنها الحذف» (أبو داود والنسائي).

وقد وردت روايات كثيرة في كتب الحديث تأكيداً على إحكام الصف عند الصلاة بالجماعة، وتقول بعض هذه الروايات: إن الشيطان يدخل من خلل الصف، والبعض فضل معنى هذه الروايات اللفظى رغم أن المدلول اللفظي غير عملي هنا، لأنه حين يمد؛ مصليان أرجلهما يحدث فُرَج بين رجلَيْ كل مصلٍ حتى تتمكن الحذف (صغار الضأن) من الدخول عبره.

هذه الروايات لا تتحدث عن هيئة ظاهرية، بل عن حقيقة من حقائق الحياة. فالمطلوب من المسلمين أن يعيشوا حياتهم كلها بمنتهى الاتحاد. إنه يجب عليهم أن تتسم كل أنشطتهم بالاتحاد، وأن يكون في

كل عمل من أعمالهم مظاهر للوحدة. فحتى لو خرج بضع مسلمين مسافرين وجب عليهم أن يختاروا واحداً منهم أميراً عليهم، وأن يسافروا وحدة واحدة في ظل إمارته. وحيثما تناقص الاتحاد بين المسلمين تسلل الشيطان إلى صفوفهم وضيَّع مصالحهم.

ولو كانت العلاقات بين المسلمين تعاني من الفرقة فلن يخلو مجتمعهم من الفتن، سواء أكان ذلك داخل المسجد أم خارجه.

الجهاد الإسلامي

«الجهاد» يعني المبالغة في بذل الجهد فيقال: «جهدتُ رأيي». وجاء في القرآن الكريم: ﴿**وأقسموا بالله جهدَ أيمانهم**﴾ (المائدة: ٥٣).

والإسلام جهاد من أوله إلى آخره . . فحين يدخل المرءُ الإسلامَ فهو يدخل حياة مجاهدة، تستمر إلى أن يدركه الموت، وهو يظل يجاهد في سبيل مرضاة الله.

والجبهة الأولى للجهاد هي نفس المرء ذاتها، فحين يقول شخص ما إنه مؤمن ومسلم فهو يعاهد بأنه سيكبح الدوافع النفسانية، وسيحارب الترغيبات الشيطانية ؛ليمضي على صراط الله المستقيم. وهذا ما يعبِّر عنه الحديث النبوي الشريف الذي يقول: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله».

والجبهة الثانية للجهاد هي الدعوة؛ أي بذل أقصى الجهد لنقل رسالة الله إلى عباده، وهو عمل عظيم يصفه القرآن الكريم بالجهاد الكبير: ﴿**وجاهدهم به جهاداً كبيراً**﴾ (الفرقان: ٥٢).

وقد نزل دين الله لكل البشر وكل الشعوب، فيجب إبلاغ دين الله إلى أهل الأرض كلهم بمراعاة الآداب والمقتضيات الضرورية، والدعوة -من هذه الناحية- أعظم أنواع الجهاد، فلا جهاد أعظم منها.

والجبهة الثالثة للجهاد هي الدفـاع . فلو اعتدى أعداء الإسلام على أهل الإسـلام وفشلت التدابير للـوقايـة من هذا العـدوان ، وجبت مقاومـة المعتدين -بشرط الاستطـاعة و إلقاء الهزيمة بهم ودحرهـم . وهذا النوع الثالث من الجهاد هو ما يسمى في الشريعة بالقتال في سبيل الله .

وجهاد النفس وجهـاد الدعوة عملان دائمان مستمـران كل يوم وكل لحظة من حيـاة المؤمن والمؤمنة . أما جهـاد الأعداء فأمر طـارئ ومؤقت يزول مع زوال العدوان . وهـدفه الدفاع الذي يُلْجَأُ إليه في حـالة مبادرة طرفٍ خارجي بالعدوان .

الإسلام بين المظاهر والروح

يعني إسـلام العبد أن يصبح اللـهُ وقضيةُ الآخـرة جزءاً لايتجـزأ من حيـاتـه . . أن يتجـدد لقـاء العبد بـاللـه -على المستـوى الـروحـاني- باستمـرار . . ولكن حين يصاب المؤمنـون بالجمـود والانحطاط تغيب عنهم روح الإسـلام ، ولا تبقى لهم منـه سـوى المظاهـر والشكليـات ، فيهبط من مستواه الـرباني إلى المستوى البشري . . فتخمد مشـاعر حب اللـه والخوف منـه ؛ لأنـه تعالى غـائب عن الأنظـار، ويـروج تقـديس «الآلهة» المنظـورين من الأحبـار والرهبـان . . وينتهي البكـاء أمام اللـه والتضرع إليه في خلـوات الليل الهادئة ، وتروج التلاوة والخطب بـالمذياع ومكبرات الصـوت . وتكفّ الصـلاة عن إنـارة القلـوب ، بينما أضـواء الجوامع تبهـر الأبصـار . . يخلو الصيـام من الصبر والتقـوى ، ويكثـر الاهتمام بالإفطار والسحور . . تغيب روح الشكـر والسجود أمام الخالق في الأعياد ، بينما بريق الملابس والأسـواق يخلب الأنظار . . هكذا يهبط من مستواه الرباني إلى مستواه البشري .

حين يراقبك الأسد

جيم كـوربيت رجل إنجليزي جـاء إلى الهنـد سنة ١٩٠٧ ، وبلغـه بعـد مجيئـه بقليل أن هنـاك عدداً من الأسـود الآكلـة للبشر في منطقـة كومايون بشمال الهند، فحمل بندقيته وتـوجه إلى غابات كومايون ، وفي نفس السنة قتل ببندقيته أسداً كان قد التهم ٤٣٠ شخصاً من قبل .

وأمضى جيم كـوربيت ٢٢ سنة في غـابـات كومـايون حيث أعـدم برصاص بنـدقيته أكثر من ١٢ أسداً من أكلـة البشر. والجائزة الوحيدة التي حصل عليها كوربيت -لقاء هـذه البطولات التي عرّض فيها نفسه للخطـر مـراراً- هي الطمأنينـة القلبيـة ؛ بأنـه جعل قطعـة صغيرة من الأرض آمنة تمشي عليها الفتيات الصغيرات .

وقـد سجل كـوربيت تجاربـه هذه بتفصيـل في كتابـه «أكلـة البشر بكومـايون» Man-eaters of Kumaon وهو يقـول في كتابـه هذا : «أن القرب من الأسـد في ضوء النهار، حتى لـو لم يكن قد رآك ، يسبب لك هيجانـاً في الدورة الدمـوية ، ويتحول الهيجـان إلى إعصار حين لا يكون الأسد أسداً عادياً بل آكـلا للبشر، وتكون الساعة العاشرة في ليلة مظلمة وأنت تعرف أن آكل البشر يراقبك» .

الإحســاس بأن الأسد قـريب مني وأنـه يـراقبني يثير طـوفانـاً في دم الإنسـان . فما بالك لـو تملكك اليقين بأن اللـه -الـذي هو خـالق كل الأسـود وكل السماوات والأرض- قــريب منك ويــراقبك بحيث لا يمكنك إخفاء شيء من شؤونك وأسرارك عنه؟ . .

لا تكن الخامس فتهلك

قال الرسول ﷺ: «كنْ عـالماً أو متعلماً أو مستعمعاً أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك».

العلم المطلـوب في حديث الـرسول هو العلـم الذي يتيح لـلإنسان معـرفـة الله وأحكـامـه، ومن النـاس المثقفـون والجهلة، والعـاقلـون والأغبياء؛ و لذلك حـدد الرسول أربع درجاتٍ مراعـاةً لأحوال الناس، وأمرنا بأن نكون ضمن إحدى هذه الدرجات الأربعة.

فالمطلوب الأول أن تتعمق في استيعاب كتاب الله وسنة رسوله، وأن تبذل الجهود اللازمة للوصول إلى المعرفة الصحيحة.

و إن لم تصل بعدُ إلى هـذه الدرجة، فعليك أن تكون عـارفاً بجهلك فتبدأ دراسة العلم الحقيقي وتصبح طالب علم القرآن والسنة النبوية.

ولو أدركتَ -بسبب أحوالـك- أنك غير قادر على اكتساب العلم، فـلا بد أن تعترف في قـرارة نفسك بأنك لست عالماً ولا طـالب علم.. والقرار الصحيـح في مثل هذه الحالـة هو أن تصبح مستعماً، تتـوجه إلى مجالس العلماء وتنصت إلى مـا يـدور فيهـا من أحـاديـث العلم. ولـو شعـرت أنك غير قـادر حتى على هـذه الـدرجـة، فـلا بـدَّ أن تشعـر بـالحرمان وأقلّـه أن تحبَّ الـذين اكتسبوا شيئـاً من العلم. وهـذه أدنى درجة يقبلها المؤمن لنفسه في حياته الدنيوية.

والدرجة الخامسة ليست الهداية بل هي الضلال، وهي أن يكون الإنسان جاهلاً بالحقائق ثم يُصرُّ على الجدال والخصام، أو أن يسخر حياته كلها لتعلم علوم لا تمت إلى علوم الدين بصلة، أو أن يتوجه إلى مجالس لا يذكر فيها اسم الله ولا تتداول فيها أحاديث الدِّين، إلى أن ينتهي به المطاف إلى احترام أناس ليسوا من علماء الدِّين، بل ممن سخَّروا أنفسهم لاكتساب علوم أخرى لا أهمية لها في يوم الدين. هذا هو الإنسان الخامس. ومن وجد نفسه على هذه الدرجة فليتأكد أنه قد «هلك»، اللهم إلا إذا تاب وجاهد ليصبح واحداً من الأربعة الأوائل.

التكالب على الدنيا

لو تعمقت في دراسة المجتمع فستجد أن كل الناس يتهافتون على المكاسب الدنيوية، كل الناس من غنى وفقير، وجاهل وعالم، وصغير وكبير، يلهث وراء مغريات الدنيا، ولو شعر أحدهم أن يستطيع أن يحصل على ذرة من المتعة أو الثروة أو الشهرة أو المنصب فهو يجري لاهثاً وراءها، وكأنه يقول بلسان حاله: «هذه الأشياء لا توجد عند الله، فلِمَ لا أفوز بها هنا» !!

وأغرب شيء في هذا الصدد هو أن الذين يظنون أنهم متمسكون بالدِّين هم لا يختلفون عن غيرهم.. وهم لم يتخلفوا عن أحد في جريهم وراء بعض الإمكانات التي انفتحت لهم في العصر الحديث. وشوقهم لا يقل عن أي إنسان آخر في لُهَاثِهم وراء المناصب والاستعراضات والحفلات والاشتراك في المؤتمرات والاستقبالات ونشر الأخبار في الصحف وما إلى ذلك من حب البروز والدعاية للذات... ويبدو أن الذي يخطب عن الآخرة لا يؤمن بها، وإن كان يؤمن بها فما أضحل إيمانه الذي لا يظهر في سلوكه الشخصي.

التقوى والأخلاق

سُئِلَ رسول الله ﷺ -فيما رواه الترمذي- عن أكثر ما يُدخِل الناسَ الجنةَ، قال: «تقوى الله وحسن الخلق».

الإنسان عبد الله، ولكنه يعيش في هذا العالم بين ظهراني كثيرين من عباد الله.

فعلاقته تقوم -معاً- بالله تعالى من جهة وبالآخرين من البشر من جهة أخرى، وهكذا يخضع الإنسان لامتحان من نوعين، عليه أن ينجح في كليهما. والمطلوب من الإنسان فيما يتعلق بالله أن يعتبره خالقَه ومالكه، وأن يتملَّكه شعور بالعظمة الإلهية والكيفية القلبية التي تنتج عن هذه العقيدة، وهذا الشعور هو ما يسمى بالتقوى.

الله عظيم والإنسان صغير.. الله قادر والإنسان عاجز.. الله معطٍ والإنسان متلقٍ. واعتراف الإنسان بهذه الحقائق يولِّد فيه مشاعرَ التواضع أما م البشر والمسؤولية أمام الله، وهو يقضي على مزاج الطغيان والتفرعن فيه.. فيبدأ حياة عامرة بحبِّ الله والخوف منه في آنٍ واحد.

وحين يكون إنسان كهذا بين آخرين من البشر فيكون تعامله معهم مثالاً لحسن الأخلاق، ويكون قوله عَلَماً على التواضع، وعمله رمزاً للعدل.. فهو يعيش وكأنه يرى الله تعالى أمامه يراقبه، متيقناً من أنه

تعالى سيحـاسبه عن كل قول وفعل . والأخلاق التي تظهـر عن إنسان كهـذا هي مـا يسمى بحسن الخلق . والإنسـان الذي يفـوز في هـذين الامتحانين هو الذي سيدخل الجنان الأبدية .

بين الدين الإلهي والمذهب الوضعي

إلكزندر توسيبكو فيلسوف روسي معروف يبلغ من العمر نحو خمسين سنة. وهو أستاذ بمعهد الاقتصاد الدولي والدراسات السياسية بموسكو . . قابله مندوب مجلة نيوزويك، وأجرى معه حديثاً خاصاً، نشرته المجلة في عددها الصادر في ٢٣ يوليو ١٩٩٠ . ومن هذا الحوار السؤال والجواب التاليين :

س : كيف تطورت أفكارك عن الماركسية؟ ماذا كان أهم شئ في تطورك الشخصي؟

ج : حين تقرأ كتاب (الرأسمال) لكارل ماركس فلا تكاد تصل إلى الصفحة الثالثة حتى يتضح لك كل شيء بدون لف ولا دوران، والعبيط وحده يمكن أن يؤمن حقاً بالماركسية .

وكان ماركس قد ألف كتابه عن الاقتصاد الرأسمالي بعنوان (داس كابيتال) بالألمانية . ونشر هذا الكتاب للمرة الأولة سنة ١٨٦٧ . وادعى الاشتراكيون أن هذا هو «قرآن العصر الحديث»، وأن الإنسان لا يحتاج اليوم إلى الأنجيل أو القرآن، بل يكفيه داس كابتيال موجهاً وقائداً ! !

وقـد انهار سحر هـذا الكتـاب خلال قـرن واحـد فقط لدرجـة أن مفكراً روسياً معاصراً يرى أنه كتاب لا يؤمن به إلا المغفَّلون .

والقرآن على العكـس من هذا لا يـزال يحافظ على أهميته منـذ أربعة عشر قـرنـاً . ولم يثبت في حق القـرآن ، ولا الذي جـاء بـه ، شيئ ينـال منهما . ولا يـزال القرآن «كتـابـاً لا ريب فيه» . وهـذا دليل لا سبيل إلى إنكاره حول أحقية القرآن الأبدية .

مـا أن صل الإنسـان إلى «الصفحـة الثـالثـة» من كتب البشر حتى تتضح له أخطاؤهـا . . أما القرآن فكتاب خـالٍ من كل الأخطاء حتى «صفحته الأخيرة» ، وهـذه الحقيقة العلميـة دليل كـافٍ على أن القرآن كتاب إلهي ، وأنه ليس من صنع البشر . .

ليس كمثله شيء

جاء في القرآن عن الله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى: ١١). فالله تعالى أعلى وأعظم من كل وجود في الكون، ومن كل ناحية. وعلوه وسموه هذا هو الذي يفرض أن يكون الله معبوداً لكل الموجودات الأخرى .. أن يركع الكل أمامه .. أن يعتبره الكل أعظم منهم وأن يرضوا بالعيش صغيرين أمامه.

إن الذات الإلهية قائمة بذاتها. أما الإنسان فلم يوجد إلاّ لأنه مخلوق، بينما الله تعالى أعظم من أن يخلقه أحد. فالوجود الإلهي مستقل بذاته، وهو موجود منذ الأزل وسيظل موجوداً إلى الأبد. وهو واحد ليس له من والد ولا ابن .. وليس له من كفؤ.

والله تعالى قادر على إبداع الوجود من العدم، وهو الذي أوجد كل ما لم يكن موجوداً من قبل. وما نراه في الكون من مادة وحركة، وضوء وطاقة، وشعور وحياة، هو كله من خلق الله .. فهو الذي أسبغ الوجود على كل شيء.

والله تعالى عالم الغيب .. وهو يعلم تمام العلم ما حدث، ويحدث، وسيحدث. وهو الذي دبَّر الكونَ بحيث تتوافق كل أجزائه ويتوأم بعضها مع البعض الآخر فلا يحدث فيه نقص مطلقاً.

والله تعـالى موجود حيّ . . وقد تجلّى عن النـوم والإرهاق والضعف . . وهـو يُدَبِّـر كونـه المترامي الأطراف بصـورة مستمرة لا خلل فيهـا ، وهذا هـو السبب في أن الكون لا يزال يتحـرك بنظامه البـديع رغم مرور آلاف البـلايين من السنـوات على ظهـوره ، لم يتـوقف خـلالـه لحظـة واحدة ، ولم يقع خلاله خلل واحد في حركته .

والله تعالى يملك القوة الكاملة ، ولو لم يكن الله مالكَ القوة لما تمتع الإنسان بشيئ منهـا . . والله تعالى بصير بكل مـا أوجده من مخلـوقات . . ولـو لم يكن الله بصيراً لحُرِمِ الإنسـانُ من نعمـة البصر. والله تعـالى يملك والإدراك الكـامل . . والله تعـالى مالك كل شيء وصـاحب كل قوة . وهـو يملك الصفات التـي نعرفهـا والصفات التي لا نعـرفها . . لقد تجلت صفـة الله «الخالقية» في العالم الراهـن ، وستتجلى صفته أكثر «الحاكمية» في العالم الآتي .

الغد آتٍ بعد كل يوم

كانت بنزير بوتو رئيسة وزراء باكستان لعشرين شهراً. ثم أقصاها الرئيس غلام إسحاق خان عن منصبها بتأييد من الجيش الباكستاني في ٦ أغسطس ١٩٩٠.

ويقال إن الفساد فاق كل الحدود في عهد بنزير. وقد نشرت الصحف وقائع وقصصاً كثيرة حول هذا، ومنها تقرير مفصل نشره س. وينكانت ناراين مراسل صحيفة «هند وستان تايمز» بلاهور في عددها الصادر في ٢٢ أغسطس ١٩٩٠، ويقول هذا التقرير بعد ذكر وقائع متعددة:

إن أقارب بنزير وأعضاء حزبها كوّنوا ثروات وأملاكاً تقدَّر بالبلايين. ومما قاله المراسل: «كان أصدقاء السيدة وأقاربها وأقارب زوجها المتنازع عليه آصف علي زرداري مشغولين في إثراء أنفسهم كأنه لن يكون هناك غد بعد يومهم ذاك».

وما قاله المراسل عن أقارب وحاشية بنزير بوتو هو نفس شأن كل البشر في ما يتعلق بقضية الآخرة. فإنسان اليوم مشغول بيومه، وهو يظنُّ أنَّ الغد لن يأتي أبداً.

والنـاس ينكـرون الحق كأنهم لـن يسألهم سـائل : لِمَ أنكـروا الحق؟ والناس مشغولون بالكـذب كأن أحداً لن يحاسبهم على ما يلفظونه من كذب . والنـاس قد أحلّـوا أرواح الآخرين وأمـوالهم وشرفهم كأنهم لن يحاسبوا على تحليـل ما حرمـه الله . والنـاس يخرقون المبـادئ كأن ذلك اليـوم لن يأتي أبداً ، حيث سيجب عليهم أن يبرروا : لِمَ خـرقوا المبـادئ الإلهية الأبدية لمنافع وقتية وزائلة .

الجنـة والجحيم

روى أبو هـريرة رضي اللـه عنه أن الـرسولﷺ قال: «مـا رأيت مثل النار: نام هاربها، وما رأيت مثل الجنة: نام طالبيها» (رواه الترمذي).

إن أكثر ما ينبغـي للمرء أن يهرب منه هو الجحيم ولكنـه نسيها تماما .. وينبغي أن تكـون الجنـة على رأس مـا يطلبه الإنسـان، ولكنـه غير طالباً لها. وهاتان الجملتان خلاصة لقصة كل البشر.

وما أعجب حال البشر هذا .. فالناس لا يخافون من الجحيم حتى على مستـوى الشعـور. وهم لا يطلبـون جنـــة اللـه حتى على مستـوى الأماني. وكيف يمكنهم - والحالـة هذه- النجاة من النـار والفوز بنعيم الجنة ؟ !

ومخاوف البشر تتركـز على أشياء أخـرى، ومشـاعرهم تلتهب لأمـور أخرى، ومشـاعر الخوف والأمل الكامنـة فيهم مكرَّسة لأشيـاء أخرى، فكيف يمكن في مثل هذه الحالة أن يستحقوا رحمة ربهم؟

لقد جعل الناس قضية الدنيا قضية قضاياهم، ولم تعد قضية الآخرة قضيـة أحـد منهم. ومركـز أعمال الكل هي ثـروات الـدنيا وزعـامـاتها وقبولها وشهرتها، وليس هناك من أحد يفكـر في عطايا الآخرة ونجاتها. وليس هناك من أحد يجنُّ جنونه خـوفاً من عذاب الآخرة وطمعاً في جنة الآخرة.

آه، لـدينـا بها كل شيء ولكن ينقصها الشيء الـذي كـان ينبغي أن يكـون بها قبل كل شيء. آه، لـلإنسـان الذي يعـرف كل شيء ولكنـه يجهل أهم شيء كان ينبغي عليه معرفته قبل كل شيء. هذه هي الغفلة الكبرى، وسيأتي يوم يدرك فيه الإنسـان غفلته هذه. ولكن هيهات . . تلك المعرفـة ستكون حسرة على صـاحبها وليست فرصـة لتلافي مـا قد فات.

أنصاف رجال

قلت لـرجل كنـت أتحدث معـه : «كل الـذين جـربتهم وجدتُهم أنصاف رجـال ، لم أجد رجلاً كـاملاً . فكل شخص كان رجـلاً بنسبة خمسين في المائة ، ولم أجد رجلاً بنسبة مائة في المائة» .

كل رجل خبير في إدراك «الحق» الذي يصيـب الآخرين ويضرّهم ، أما «الحق» الـذي يصيبه هـو فلا أحد خبير بمعـرفته ، ولا أحـد كريم الأخلاق إلا حين تقـول أو تفعل مـا يرضيه ، ولا أحـد كريـم الأخلاق حين تقـول أو تفعل مـا لا يحبـه . الكل حـريص على فهم مصلحتـه ، والكل أبله في فهم مصالح الآخرين .

كل الناس في عالم اليوم يتحـدثون عن «المبادئ» ، ولكن كل الناس بدون مبـدأ من الناحية العمليـة ، فهو يحث الآخرين على العـزيمة بينما يختار الـرخصة ديناً لـه . الكل متقدم في ميـدان الكلام والكل متخلف في ميدان العمل .

الكل ظـالم ولكنـه يعلن نفسـه مظلـومـاً . والكل يسعى لمصلحتـه ولكن الكل يضع تاج الحق على رأسـه . الكل يقف على الكذب ولكن الكل يتزين بلباس الصديق حين يظهـر أمام الآخرين . الكل غير جاد ولكنه يضع على وجهـه قناع الجد . الكل يسعى لذاته ولكنـه يعلن أنه يقوم لأجل الدين والمبدأ لا غير.

الكل ينشر الظـلام ولكنـه يتحـدث عن النـور. الكل منـدوب الخريف ولكنه يعلن نفسه ممثلاً للربيع . الكـل يدير مشاريع التخريب ولكنه يرفع لـواء البناء . الكل يدفع الآخريـن إلى غار الموت ولكنه يعلن أنه فارس الحياة .

ولو قـال الناس نفس ما عملوه، وعملـوا نفس ما قالوه فسيُعـرَفون على الأقل بـالصـدق . أمـا في الحالة السـائدة فـلا أحـد سيفـوز حتى بوصف الصدق .

آهٍ لدينا كل رجالها أنصاف رجال يعلنون أنهم الأكملون .

أدوات الامتحـان

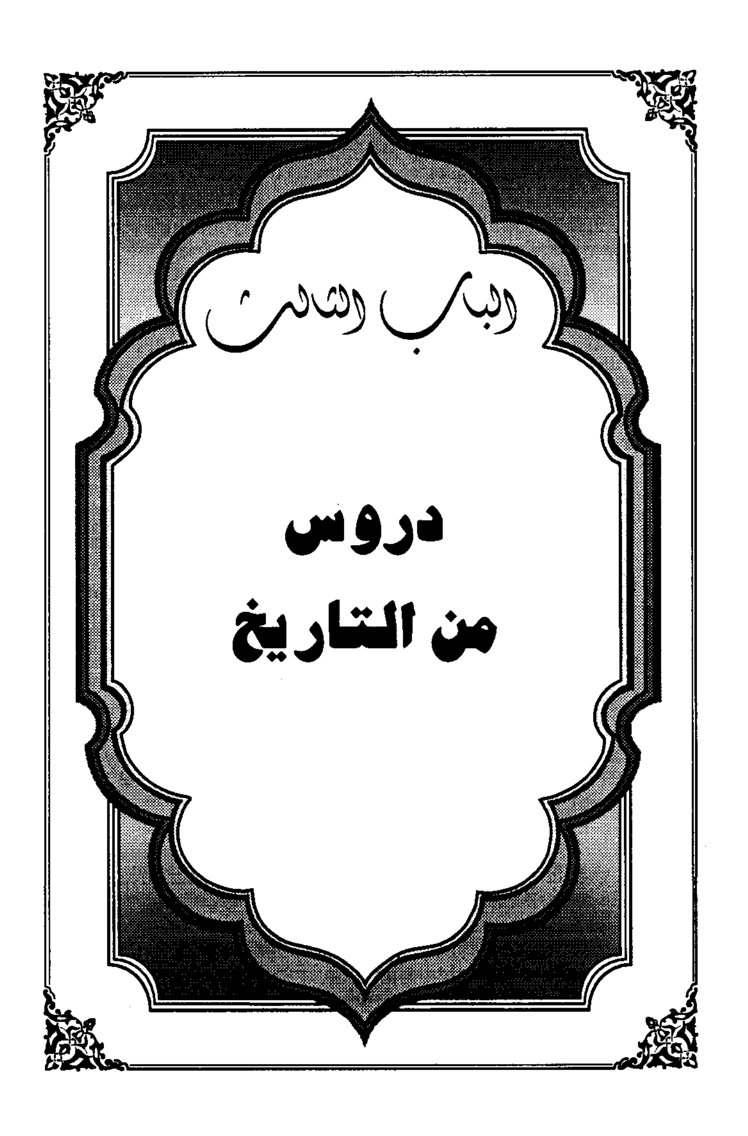
حين يدخل الطـالب قاعـة الامتحان يجد مكـانا فسيحـاً، وكراسي وطـاولات، وعمالاً يخدمـونـه، والنـور، والماء، وأشيـاء أخـرى كثيرة. ولكن الطالب لا يملك شيئـا من هذه الأشيـاء، فكل محتويات قـاعة الامتحـان أدوات لـلامتحـان وليسـت أشيـاء للتملك، وللطـالب أن يتصرف في تلك الأشيـاء طيلـة مـدة الامتحان، ولا تكـاد المدة المقـررة تنتهي حتى يُجبَر على مغادرة القاعة.

وهذه هي قضية الإنسان بالنسبـة لسائر العالم. فليس هنا من شيء يمكله الإنسان ملكية حقيقيـة وقطعية، بل كل شيء أُعطى له كأدوات الامتحان، فـالجسد الـذي يولـد به الإنسـان ونظام الأرض والسماوات الذي يستفيد به وحتى الأشياء التي تبـدوا وكأنه اكتسبها بعرق جبينه، هي كله من الله تعالى، وقـد أعطيت له على سبيل الامتحان، ويحق له استخادمهـا إلى أن تأتي منيته، فحقـه ينتهي بصورة كليـة بمجرد مجيء الموت.

واختبار الطالب الـذي يدخل قاعة الامتحـانات هو أن يجيب على الأسئلـة المطبـوعـة على ورقة الامتحـان، وهـو نـاجح لـو فعل ذلك، وفاشل فيما لو أخفق في الإجابة عليها.

وامتحان الإنسان في الـدنيا هو ليرى اللهُ تعالى ردَّ فعلنـا إزاء امتلاك هذه الأشياء، أو كما جـاء في القرآن الكريم: ﴿**لننظر كيف تعملون**﴾ (يـونس: ١٤). فقـد أعطانـا الخالق أسبـاب الحيـاة ثم تركنـا أحـراراً ليمتحننا: ﴿**هل نشكر ربنا أو نكفر بنعمته**﴾ (النمل: ٤٠).

فحياتنـا قبل الموت هي فترة الامتحان، أمـا حياتنـا بعده فهي فترة الجزاء. والـذي يسلك طريـق الشكر في حيـاتـه قبل الموت هو الـذي سيظفر بـالجنة الأبديـة في حياته بعـد الموت، وأما الـذي يسلك طريق الكفـر بنعم اللـه في حيـاتـه قبـل الموت فسيكـون من نصيبـه الجحيم الأبدي بعد الموت.



الباب الثالث

دروس من التاريخ

التدبير وليس المناطحة والتهور

لمولانا جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣م) مقام كبير في نظر المسلمين. ولا يزال «المثنوى» الذي ألفَّه - من ٢٧ ألف بيت شعر - يتمتع بشعبية كبيرة في أوساطهم. وظل العلماء لعدة قرون يقرأون هذا الكتاب كإحدى أهم كتب المعرفة والاستلهام.

ودمر التتار بغداد سنة ١٢٥٨م، فقضوا على الدولة العباسية، وفرضوا على العالم الإسلامي حكومتهم الظالمة. ومولانا الرومي -الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ٥٠ سنة تقريباً- قدَّم للمسلمين من خلال «المثنوى» دروساً روحانية وأخلاقية وسعى إلى النهوض بهم.

وفي الوقت نفسه حاول مولانا الرومي هداية مسلمي عصره إزاء القضايا التي كانوا يعانون منها. فقال للمسلمين -عبر الحكاية والرمز- ما ينبغي لهم وما لا ينبغي.

ومن الحكايات المعبرة التي أوردها: حكاية الأسد والأرنب، التي وردت بتفصيل في «الكتاب الأول» من «المثنوى»، وخلاصتها: أن أسداً كان يسكن غابة، وكان يهاجم الحيوانات كل يوم لإشباع جوعه ويلتهمهم، وكانت النتيجة أن كل الحيوانات كانت تعاني من الذعر والخوف بصورة دائمة، ثم اهتدت إلى حلٍّ عرضته على الأسد، وهو ألا

يهاجمها بل هي سترسل له طواعيةً حيواناً واحداً كل يوم، فرضي الأسد بالاقتراح. وأخذت الحيوانات تعمل بهذا الحل، وكانت تقرر كل يوم بالقرعة الحيوانَ الذي سيصبح غذاء الأسد، وكل من أصابته القرعة ذهب إلى الأسد. وهكذا أخذت الحيوانات تعيش بالأمن والطمأنينة داخل الغابة، إلى أن أصابت القرعة أرنباً. وكان هذا الأرنب قد فكَّر طويلاً في الأمر قبل ذلك اليوم، وقرَّر في قرارة نفسه أنه لن يسمح للأسد بالتهامه، بل سيقضي على الأسد بتدبيره وحكمته.

وهكذا وصل الأرنب -طبق خطة مدروسة- إلى الأسد بعد ساعة من الموعد المحدد للوصوله. وكان الأسد جائعاً بل وغاضباً نتيجة التأخير، وزداد غضبه حين رأى حجم الأرنب الصغير. وقال له الأرنب بكل أدب ورقة: «سيدي لقد جاء أسد آخر إلى مملكتك، وكانت الحيوانات قد أَرسلت لغذاءك اليوم أرنبين، ولكن الأسد الآخر هاجمنا فتمكَّن من الأرنب الآخر، أما أنا فتمكنت من الهرب والحضور إليك».

والآن تحول غضب الأسد إلى الأسد الآخر، فصاح قائلاً: «من هذا الأسد الذي تجرأ على الدخول إلى غابتي؟ اصطحبني إليه لأقضي عليه». وخرج الأسد مع الأرنب، فأخذه الأرنب من مكان إلى آخر إلى أن انتهى به إلى بئر، فقال له: «سيدي ذلك الأسد موجود بداخل هذا المكان وما عليك إلا أن تلقي نظرة عليه».

فأطلّ الأسد فوق البئر فرأى عكسه في الماء، وظنَّ أن ما قاله الأرنب صحيح، وأن أسداً آخر موجود حقيقة داخل البئر، فزأر، وخرج زئير الأسد الآخر». ولم يحتمل الأسد أن يأتي «أسد آخر» إلى مملكته، فوثب على الأسد المفترض، ومات داخل البئر.

وهكـذا قضى الأرنب بتـدبيره على عدو كـالأسـد . ويقـول مولانـا الرومي في نهاية الحكاية : إن شِبَاك تـدبير الأرنب كان شركاً للأسد . فما أعجب الأرنب الذي اصطاد أسداً ! !

كانت هـذه هدايـة بلغة الحكايـة ، قدَّمهـا مولانـا الرومي لمسلمي عصره ولم يحثهم على المنـاطحـة ، ولم يقل لسكـان الغـابـة أن يتحـدوا للهجـوم على الأسـد ، وأنهم لـو قضوا عليـه فسيكـونـون من الأبطـال الغزاة ، ولا حرج لو أهلكهم الأسد فهـم سيلتحقون بقافلة الشهداء في تلك الحالة ، وأنه من ظفر بدرجة «شهيد» فقد ظفر بمقام عظيم .

وعلى العكس من هـذا وجّـه المولانـا الـرومي مسلمي عصره نحـو التدبير الحكيم ودلهم على طـريق الحياة بـدلاً من طريق الموت . ويجب على من يتبع الحكمـة أن يقنع بالصغـر والهوان في البدايـة ؛ لكي يصل في النهاية إلى العظمة والفوز الكبير.

ونصيحة مولانا الرومي نافعة لحالنا تماماً كما كانت نافعة لماضينا .

المطلوب: «عشرون سنة» لاحتراق كبير

■ «اكتشف كولومبوس القارة الأمـريكية» . . . يمكن لأحدنا اليوم أن يذكر هـذه الواقعة بلسانه في أقل من ست ثواني، ولكن كـولومبوس أنفق ٢٠ سنة حافلة بالمشاق من عمره لتحقيق هذه الواقعة .

وقـد ولد كـريستـوفر كـولـومبوس بإيطـاليـا سنة ١٤٥١م، وتـوفي بأسبانيـا سنة ١٥٠٦م . وكان اكتشـافه للقارة الأمـريكية نتيجة فـرعية لمحـــاولتـه اكتشـــاف طـــريق بحـــري من أوربـــا إلى الشرق . وطلب كـولومبـوس من الملك البرتغالي جـون الثاني سنــة ١٤٨٤م أن يساعـده على هذه الـرحلة البحريـة ، ولكن الملك البرتغالي لم يعتن بـه ؛ لظنه أن خطة كولومبوس عقيمة وبدون جـدوى . ثم توجه كولومبوس إلى ملكة قشتـالة (إيـزابيلا) ولكنهـا لم تـردَّ بصورة إيجابيـة أول الأمر على طلبـه ، ولكن كـولومبـوس استمر في جهـوده و إلحاحه إلى أن وفـرت له الملكـة السفن والأمتعة الضرورية .

وبدأ كـولومبوس في جهـوده و إلحاحه إلى أن وفرت لـه الملكة السفن والأمتعة الضرورية .

وبـــدأ كـولـــومبـوس رحلتـــه الأولى بثـــلاث سفن في ٣ أغسطس ١٤٩٢م، ولكنه فشل في الوصول إلى الشـاطئ الأمريكي إلا أنه واصل جهوده رغم كل المشكلات والمحن .

وأخيراً - في رحلته الرابعة سنة ١٥٠٤م - تمكَّن كولومبوس من اكتشاف «العالم الجديد». وكان العالم قبل كولومبوس ينقسم إلى جزأين، ولكن اكتشاف كولومبوس دمج العالمين «القديم» و«الجديد» في عالم واحد، وكان هذا اكتشافاً عظيماً، ولكنه لم يتحقق إلا حين استمر كولومبوس ورفاقه ٢٠ سنة يحاولون تحقيق خطتهم دون أن يفقدوا الأمل.

وهذا هو طريق النجاح في هذا العالم. فكل نجاح هنا يطلب «٢٠ سنة» من الجهد والتفاني وبدونها لا يمكن الوصول إلى نجاح كبير هنا.

كل نجاح كبير في هذا العالم يتحقق بعد جهد طويل، فيجب على الإنسان أن يرضى بالقليل في يومه الحاضر لكي يظافر بالكثير في غده القادم.

■ نيل أرمسترونغ هو أول إنسان وصل إلى القمر، ونزل من مركبة تسمى «الصقر»، ووضع قدمه على سطح القمر. وكان الاتصال قائماً بين الأرض والقمر في ذلك الوقت، وأول رسالة بعث بها أرمسترونغ بعد نزوله على القمر هي: «هذه خطوة صغيرة لواحدٍ من البشر ولكنها وثبة عملاقة للبشرية».

وكان أرمسترونغ يعني بهذا القول: أن نزوله على القمر هو نزول إنسان واحد على القمر في ظاهر الأمر، ولكنه في حقيقته بداية عصر كوني جديد. فقد ثبت بنزول إنسان واحد على القمر أن من الممكن لأي إنسان آخر أن يسافر إلى القمر. وسوف يتقدم هذا الاكتشاف في السنوات القادمة إلى أن يحين وقت سفر عامة الناس من كوكب إلى آخر، تماماً كما يسافرون على وجه الأرض اليوم من مدينة إلى أخرى.

وكل عمل عظيم في هـذا العالم يحدث هكـذا . فـرد واحد أو عـدة أفراد يضحون ليصلوا إلى اكتشاف جديد ، وبـالتالي يفتحون باباً جديداً للمسيرة البشرية . وهذا العمل الرائد صعب للغايـة وهو بمثابة زحزحة جبل من مكانـه ، ولكن بعد تحقيق هـذا العمل الرائد كل شيء يهون ، فينكشف أمام عامة الناس طريق رحـب جديد ليواصلوا المسيرة بأعداد كبيرة .

وحين ينشر الفـلاَّح البـذور في حقله فكأنها خطـوة صغيرة في عـالم الزراعـة ، ولكن بهذه الخطوة الصغيرة تبدأ مسيرة الفلاَّح الـزراعية إلى أن نشاهد في حقلـه فصلاً زراعياً متكامـلاً . وينطبق هذا على كل الشؤون البشرية سـواءً أكانت متعلقة بـالزراعة أو البستنـة أو أي شيء آخر من شؤون الحياة .

هل سوف نصبح آثاراً نُزار ؟

ذهبتُ منذ مدة إلى مدة إلى مدينـة أجمير، حيث مقبرة الإمام خواجه معين الـديـن الجشتي . وهـذه المقبرة الكبيرة يـزورهـا مئـات النـاس يـومياً . وتعجُّ المدينة الصغيرة بأكثـر من مليـون زائر من الخارج . لقـد شاهـدت أن المقبرة يقصدهـا كثيرون من غير المسلمين ، كما شـاهدت أن عدداً مـن الأوروبيين يجولون داخل المقبرة بكـاميراتهم ومنظاراتهم . وهـؤلاء هم السُّياح الـذين يقصـدون هذه المقبرة تمامـا كما يذهبـون إلى الأماكن الأثرية الأخرىٰ . وقـد رأيتهم يحملون في أيديهم كتباً عن الآثار في الهنـد ، فمقبرة الإمـام الجشتي هي الأخـرى إحدى الآثـار الهنـديـة الهامة في نظرهـم ، فوجب عليهم مشاهدتها وتصويرها .

وقـد هـزّني هـذا المنظـر واتخذتـه عبرة . لقـد كـان الإمـام الجشتي (٥٣٥-٦٣٣هـ) قبل ثمانيـة قـرون وجـوداً ثـوريـاً لـلإسـلام ، والآن أصبحت مقبرتـه من الآثار. لقـد أقـام الإمام الجشتي بهذه المدينـة ٤٥ سنة ، وأسلـم على يديه تسعمائة ألف شخـص ، وكانت شهـرته تنتشر من أجمير إلى دهلي العـاصمـة . وأجمير التي كـانت عـاصمـة الملك الهنـدوسي جـاي تشانـد أصبحت أجمير الجشتي . ولكن مقـام الإمـام الجشتي ليس بالنسبـة للعالَم اليوم أكثر مـن أثرٍ قديمٍ عمره ثمانيـة قرون تجب رؤيته على المهتمين بالآثار القديمة .

هذه الآثار الإسلامية تتحدث بلسان حالها عن مركز الإسلام في دنيا اليوم. لقد انتهينا إلى «آثار» تزار. نحن لسنا عنوان العصر، بل نحن عنوان التاريخ القديم، كان وجودنا يفجر ثورة في العالم قبل ثمانية قرون، ونحن اليوم آثار من الحجر، يلقي عليها السُّياح نظرة عابرة حتى يظنوا أنهم قد استكملوا رؤية أهم الآثار المدَّونة في كتبهم. وما أعجب أن الأمة التي لقُبِّت بـ «خير الأمم» تصل إلى هذا المقام.

نحن مطالبون بالتفكير فيما إذا كنا راضين بالمقام الذي انتهينا إليه في مطاف الزمن. ولو كنا نرضى بالعيش كأثار على هامش الحياة، فلا جدال ولا قضية . . فنحن لسنا مطالبين حتى بأي عمل. ولو رضينا بوجودنا كآثار فالعالم لن يتحلمنا فقط، بل سوف يضعنا في معارض زجاجية.

أتذكر منظراً في لكنَاوْ حيث توجد حديقة باسم «بيلي غارد» وكانت بيلي غارد هذه قلعة الملك (واجد على شاه) آخر ملك مسلم على لكناوْ، وقد انهزم عقب معركة مع الإنجليز، وكان الذي يدير المعركة مع الكولونيل بيلي، وبإسمه عرفت هذه الحديقة العامة. وكان الإنجليز قد ضربوا القلعة بالمدافع الثقيلة حتى تهدمت جدرانها، وكان هناك مسجد داخل القلعة، وقد أصيب هو الآخر في هذه المعركة، وتضعضعت منارتاه وحدثت شقوق في جدرانه. واليوم لو شاهدت مسجد بيلي غارد لوجدت أن منارتيه الكبيرتين مربوطتان بالحديد. لقد ربطوا المنارتين بالحديد، لكي لا يتساقطا نتيجة التصدع الذي تسببت فيه القنابل التي دكتها، فيقوما مقامهما كأن شيئاً لم يكن.

وهـذا المنظـر يحمل لنـا عبرة . فمعنـى هـذا أن منـارة الإسـلام -أو المسجـد- حين كانت تقف مـوقف التحدي من الأعـداء لم يتوانـوا عن ضربها بالمدافـع ، ولكنها حين أصبحت أثراً مـن الأثار القديمـة أصبح محافظوها هم عين الذين كانوا يريدون تدميرها من قبل .

ولذلك أقول لكم أننا لو كنا قانعين بأن نعيش في سوق الحياة كسلع وآثـار، فـلا ضرورة للقيـام بأي عمل أو حتى بـالشعـور بأي خـوف ، وذلك لأن العالم مستعد لوضعنا في فاترينات الزجاج كآثار قديمة .

بعض الناس يطمئنون بأن الـدِّين موجود وبخير حين يجدون الناس يرتادون تكايا صوفيـة ، وبعض الناس مسرورون لأنهم يزيدون من عدد المصلين في الجوامع ، وبعضهم يعتبرونـه انتصـاراً لـلإسـلام لـو فتحـوا بعض الكتاتيب وجمعوا الأطفـال وعلّموهم بعض كتب الدين . إن كل هذه الأعمال أعمال دينيـة مطلوبـة ومقبولة ، وأنـا أشارك سعـادة الذين قاموا بها ، ولكننا لو اقتنعنـا لأنفسنا بهذا المقام، فمعنى ذلك أننا نقتنع بمقام الخفـاش من حركـة الحياة . هل خلق اللـه هذه الـدنيا الـواسعة لكي نسلِّم أمرها لـلآخرين ونجلس في زوايا الجوامع وتكايـا الصوفية؟ هل جاء دين الله لإيصالنا إلى مركز الخفاش من الحياة؟

إن الزمـن قد حكم علينا بـأن نصبح في مقام الآثـار، أو على الأكثر في مقـام الخفـاش من الحيـاة . فهل نحـن سنقبل بهذه الحال؟ هل سنرضى بحكم الزمن هذا؟

لقد خلق اللـه عالمه واسعاً وفسيحـاً، ودنياه تحفل بأنشطة هـائلة. هل لا مجال لـدين اللـه في أنشطـة دنيـاه؟ هل الإسـلام لا عـلاقـة لـه بالمؤسسات العلميـة؟ هل الإسلام بمعزل عن البطولات الفكـرية؟ هل الاكتشـافات العلميـة لم تخلق مشكلات في وجـه دين الله، وفي وجـه المسلمين؟

أعتقد أنها ستكـون غفلة كبرى لو أجبنـا على هذه الأسئلـة بالنفي. إنها ليست غفلة فحسب وإنما هي جريمة، فمعناها أننا نحدد مجالات دين الله فراراً من امتحان الحياة العملي.

قدوة لا سبيل إلى قهرها

قضى ابن خلـدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) جزءاً من حيـاتـه بالشـام، وكـان داخل دمشق حين حاصرهـا تيمور سنـة ١٤٠٠م . وبدأ حـوار بين تيمور وأهل دمشق خلال الحصار، وخلال هذا الحوار أبدى تيمور رغبته في اللقاء بـابن خلدون الذي كانت شهرته -كمـؤرخ- قد جابت الآفـاق. وظن أهـل دمشق أن تيمـور يميل إلى الصلح، فـربطـوا ابن خلـدون بحبـال وأنـزلـوه إلى خـارج سـور المدينـة، وهكـذا وصل ابن خلدون إلى معسكر تيمور وأقام به سبعـة أسابيع. وأكرمه تيمور وسمح له حسب رغبته بالذهاب إلى مصر، ولكـن تيمور كان يرمي وراء إكرامه للمؤرخ ابن خلدون تحقيق مصالحه، فكـان يحلم بمزيد من الفتوح . . فطلب أن يعد لـه خريطـة مفصلة للشمال الأفـريقي، ولم يكتف تيمور بالتحدث مع ابن خلدون بل استكتبه تقريراً جامعاً.

كان تيمـور ظالماً وجبارًا في حق أهل دمشق، فحطم المدينـة وحرق مسجدها الكبير رغم جنوح أهلها إلى الصلح، ولكنه أكرم ابن خلدون وقـدَّره حق قـدره، وذلك لأن ابن خلـدون أثبت بعلمـه الممتـاز عن التاريخ والجغرافيا أنه دليل في غاية الأهمية لتيمور.

فلو أثبت الإنسان فائدته سيصبح محترماً في أنظار الكل، بل وحتى في أنظـار عـدوه الظـالم الفتَّـاك. فكـونـك مفيـداً ونـافعـاً يجعل حتى الوحوش يكرمونك، وينحني أمامك حتى الملوك.

الحل السهل

● كـان الشـاعـر ألطـاف حسين حـالي (١٨٣٧ - ١٩١٤) يملك عقليـة ثوريـة، وبدأ حـركة الإصـلاح في الأدب الأُردي، ونقد الشعـر الأُردي القديم بقسوة لدرجة أنه قـال فيه: إنه عَلَمٌ على المبالغة والعشق والأوهام الافتراضية لا أكثر.. ونادى «حـالي» بأن يكون الشعر هادفاً، وقدَّم نموذجاً للشعر الذي كان ينادي به في صورة ديوانه «المُسَدَّس».

واستـاء بهذه الحمـلات الـذين كـانـوا يعتـزون بـالشعـر الأُردي ويعشـونه، فأخـذت صحف ذلك الـزمان تنشر مقـالات مقززة حـول «حالي». وكانت صحيفة «أَوَدْهْ بَنْتْشْ» -التـي كانت تصدر في لكناؤ- تنشر عنه كتابات لاذعة، وتزينهابأبيات شعر مقذعة.

ولم يردَّ «حـالي» على هذه الحملات الهوجاء، وانكب في عملـه بدون أن يتأثر بها.. فلـم تمضِ بضع سنين حتى سكت المعارضـون. ووجه بعضهم سؤالاً إلى «حالي»: كيف سكت معارضوك؟ فردَّ حالي على هذا السؤال ببيت شعر له معناه: «لقد قالوا كل شيئ ولكنني لم أردَّ بشيء».

إن الردَّ السهل والنـاجح على المعارضات الكاذبـة هو ألا تحفل بها. فالمعارضات الكـاذبة تقوم بلا أساس، وقدرها أن تنهـار تلقائياً. والردُّ على معارضة كهذه بمثـابة مدِّ عمرها. ولو صبر الإنسـان فسينهار هذا الشجر - الذي لا جذور له- من تلقـاء نفسه. فلا قرار لأشجار كهذه على أرض الله.

والـزمن أكبر قـاتل للكـذب . . فعليـك بـالتريّث وانتظـار الغـد القادم، وسترى أن الزمن قد قضـى على الفتنة قضاءاً مبرماً، بينما كنتَ تخطط للقضاء عليها بتدابيرك الناقصة ووسائلك المحدودة.

وصلاح هذا التدبير لا ينحصر في قضيـة دون غيرها، فهو ناجح في كل القضايا التي تتحلى فيها بالصبر.

● كتب بعض المسيحيين على جسـور مـدينة دهلي وجـدرانها فقـرة «المسيح قادم قريبا» Jesus is coming soon . وانفعل بعض شباب الهنـدوس إزاء هـذا الشعـار، فخـرجـوا ليكتبـوا على كل الجدران أمـام الشعار: «ليصير هندوسياً».

ولو وقع شيء كهـذا مع المسلمين في مدينة مـا، لخرج بعض رجالهم السطحيين يقـولون بـأن هذه إهـانـة للـرسول وللمسلمين، وأنـه تحدٍ لغيرتنـا كـأمـة . . وبـالتـالي ينفعـل شبـاب المسلمين ويقـوم بـردٍّ فعل مضاد، ويؤدي هذا كله إلى إشعال نيران اضطـرابات ضائفية. وعندها سينبري الزعماء المسلمـون للإدلاء ببيانات نـارية؛ لإثبات عدم كفـاية المسؤولين عن إدارة المدينة، وسيفتتح البعض منهم حملة اكتتاب لإغاثة المنكـوبين في الاضطرابـات؛ ليقـال إنهم مهتمـون بخدمـة المسلمين، وستنشر أخبار حـارة مثيرة في صحف المسلمين لتقفـز مبيعاتها . . بينما عامـة المسلمين لن يزدادوا إلا دماراً وتحطماً. أما المسيحيـون فلم يهتموا بهذه الشعارات فتحول هذا الحدث إلى لا حدث.

وقفت في ١٩ فبرايـر ١٩٩٠ على الجسر أمام فنـدق أوبيروي بدهلي وكـانت جدرانـه مليئة بهذه الشعـارات والشعـارات المضادة، وكـانت

السيـارات تمرُّ بسرعـة على طـرفي الجسر ولم يكـن أحـد من ركـابها يهتم بالأمـر حتى يوقف سيارته ليقـرأ الشعار والشعار المضاد. وكـانت هذه الشعارات تنتظر الأمطـار وعواصف الرياح لتمحـوها قبل أن يتأثر بها أحد.

والـــذين يثـورون إزاء إثـــارات لا قيمـــة كهـذه فيمهـــدون السبل للإضطرابات الطائفية هم أجهل كل الجاهلين.

واقعة صغيرة ودرس كبير

ولد الشيخ سيد أمير علي (١٨٥٨ - ١٩٢١) بمدينة مليح آباد وتوفي بلكناؤ بالهند. ولم يتمكَّن من مواصلة دراسته بعد المرحلة المتوسطة (الإعدادية)، فأخذ يبحث عن وظيفة إلى أن عُيّن ناظر مكتب البريد بهارايتش. وتعلم أمير علي شيئاً من الإنجليزية للوفاء بمتطلبات وظيفته، وانهمك في عمله.

وكان سيد أمير علي مواظباً على الصلاة نتيجة التربية التي تلقاها من والديه، وإذ هو غائب ذات يوم لأداء صلاة الجمعة في المسجد حضر موظف كبير بهيئة البريد للتفتيش على مكتبه، وغضب غضباً شديداً حين لم يجد ناظراً المكتب حاضراً في مكان عمله، ووصل الخبر إلى أمير علي وهو يتوضأ بالمسجد، فلم يأبه به، بل أكمل صلاته بكل طمأنينة ثم عاد إلى المكتب.

وحاول المسؤول المذكور مساءلته فلاذ أمير علي بالصمت، فلم يردَّ عليه، ولم يعتذر له، بل أخذ ورقة وكتب عليها استقالته وأعطاها للمسؤول ثم عاد إلى بيته.

ولم يكن سيد أمير علي يعرف آنذاك إلا اللغةَ الأُردية وشيئاً من الإنجليزية، وكان يجهل العربية والفارسية. وهزته الاستقالة بأنه لا يعرف شيئاً عن الدِّين الذي استقال من وظيفته من أجله، لدرجة أنه

غير قادر على الـردِّ على سؤال ما حـول دينه. وقال في نفسـه: أنا أصلي ولكن لا أفهم معنى الصلاة ولا أعرف شيئا عن القرآن والأحاديث..

وهنـا تـولـدت في أمير علي همة جـديـدة، فقـرر دراسـة العـربيـة والفارسيـة، وبرع في اللغـة العربية حتـى أصبح من كبار علماء عصره، وعُيِّن في منصب «شيخ الحديـث» بكليـة دار العلـوم لنـدوة العلماء بلكنـاؤ، كما كان كبير المدرسين بـالمدرسة العـالية بكلكـوتا. وكـان ذا صلة بمطبعـة المنشى نَوَلْ كِشور، فترجم أمهات الكتب العـربية مثل: صحيح البخاري والفتاوى العالمكيرية إلى الأُردية.

لو كان بـداخل الإنسان حياة فإن واقعة عادية تحركـه ليقوم بالأعمال الجليلـة. أما لـو لم تكن فيـه حياة فستقـع عليه الـوقـائع العظام وهـو سيظل جسداً هامداً لا يعي شيئاً ولا يأخذ درساً.

«أنا غير مخطئ»

قُـدِرَ عدد الكتـب التي أُلِّفت حول هتلـر منـذ وفـاته سنـة ١٩٤٥ باللغة الإنجليزية وحدهـا بـ ٥٥ ألف كتاب! ومن أحدث هذه الكتب «مخبأ برلين» Berlin Bunker الذي صدر بلندن.

وكان هتلـر قد قضـى آخر أيامـه الـ ١٠٥ بمخبـأ عسكري ببرلين. وقد حصل مؤلف هذا الكتاب على معلوماته من زملاء هتلر ومعاونيه. وكـان هتلر قـد تـراجع إلى هذا المخبـأ في ١٦ ينايـر ١٩٤٥ حين دكت برلين ألف طـائرة أمريكية. وكـانت حالته قد سـاءت لدرجة أنـه كان يبدوا ابن سبعين سنة بينما عمره لم يتجاوز عن ٥٥ عاماً، وكان هاجسه الدائم أن القـوات الروسيـة المتقدمـة ستمسك به. وأخـذ كل شخص يخذله في هذه الأيام الأخيرة إلى أن لم يبق معه إلا كلبه.

وكانت حكـومة هتلر قد قـامت منذ بدايتها على العنف، وبـالتالي كان هتلـر خائفا من الاغتيال في كـل لحظة، ويقال إن هتلر تعـرض لـ (٢٥) محاولة اغتيال خلال سنوات ١٩٣٩-١٩٤٥، ولكنه كان ينجو من هـذه المحـاولات دائماً، ولم يكن هتلـــر يحيط نفسـه بتـدابير أمنيـة ضخمـة، بل كان مـزاجه هـو أن يغير بـرنامجه في آخـر لحظة. ويقـول البروفيسـور هافمان: كـان هتلر يقـرر بـرنامجه في بعض الأحيـان بتطيير قطعة نقـدية في الهواء ويتخـذ القرار حسـب الوجـه الذي تستقـر عليه القطعة عند سقوطها على الأرض.

ويقول زملاؤه: لم يعترف هتلر حتى لحظاته الأخيرة بأنه أخطأ، وكان يلقى تبعة المسؤولية عن كل شيئ على جنرالاته واليهود والشيوعيين . . بل وكان يتهم حتى شعبه. وحين يئس هتلر نهائياً من كل شيء انتحر بتناول حبة السيانيد.

ليس هناك من أحد في العالم يعترف بخطأه . . حتى هتلر الذي أجمع العالم كله على خطأه لا يعترف بذلك. والإنسان لا يعرف أنه سيأتي عليه عما قريب وقت يضطر فيه على الاعتراف بخطأه، وإن لم يعترف بلسانه فإن جوارحه ستشهد عليه، وهو لن يقدر على منعها من ذلك . .

قـوة الاتـحـاد

ولد تـايكوبـراهي سنة ١٥٤٦م وتوفي بمـدينة بـراغ سنة ١٦٠١م .
وولد يـوحان كيبلر سنة ١٥٧١ مـوتوفي بمدينـة ورتمبرغ سنة ١٦٣٠م .
وكان كـلاهما مولعـاً بالبحث في علم الفلك ، ولكن لم يكـن أحد منهما قادراً على أن يكتشف بمفرده حقيقة عظيمة من حقائق الفلك .

وكـان تايكـوابراهي وكيبلـر معاصران ، وكـان كلاهما يـواجه عقبـة معينـــة تحول دون اكتشـاف فلكي كبير، وهي تتمثل في أن أيـــاً منهما لم يكن خبيراً بكل جـوانب مـوضـوعـــه . وكـان تـايكـوبـراهي قـد قـام بمشاهدات فلكيـة على نطاق واسع ، وكان يسجل مشاهداتـه بانتظام إلى أن تجمعت لـــديـه ذخيرة كبيرة من المشـــاهـدات الفلكيـــة ، ولكن الجانب الآخر من علم الفلك يتعلق بـالرياضيات ، وكان تـايكوبراهي ضعيفـاً في هذا المجـال ، فلم يكن قـادراً على ربط مشـاهـداته بكليـة الريـاضيات . أمـا كيبلر فلم يكن خبيراً بالمشـاهدات الفلكيـة ، فكان حظه قليلا ، من هـذا الجانب الهام من دراسة علم الفلك ، ولم يكن قد استخـدم المنظار رغم أنـه كـان قد أُخترع في زمنـه ، إلا أنـه كان يمتـاز بخبرته بالـرياضيات ، وكان قد وضع نظـريات قيمة في علم الفلك من الناحية الرياضية .

وهنا أفادت سعة ظرف تايكوبراهي وكرمه. وكانت هناك خلافات ذاتية بين تـايكوبراهي وكيبلـر لد رجة أن كيبلر اتهم معـاصرِه في إحدى رسائلـه بالنفـاق، إلا أن تايكـوبراهي رغم مزاجـه الحاد لم يغضب من كيبلـر، بل رأى في آخر أيـامـه أن كيبلر خير وارث لـذخيرته العلميـة، فاستدعاء متنـاسياً تطوالته السابقة وأعطـاه كل ذخيرته من المشاهدات المكتوبة بدون مقابل.

وحين توفرت لدى كيبلر ذخيرة مشاهـدات تايكوبراهي ثم تلافى ما كـان يعانيـه من نقص ، فصرف قـواه العقليـة لربط تلـك المشاهـدات بالـرياضيات، ونتج عنـه ثلاث كليات تعـرف بـ «قوانين كيبلـر حول تحرك الكـواكب». واستخدام إسحـق نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) هـذه القوانين فاكتشف قوة الجاذبية.

وهذا هـو سر أي نجاح في هـذه الدنيـا، فلكل إنسـان حدود، ولا يمكنه أن يقوم وحـده بعمل عظيم. فالعمل العظيم لا يتحقق إلا حين يرضى عـدة أشخاص بتسخير كفاياتهم وتـوجيه جهودهم نحـو هدف واحـد. ولا سبيل إلى القيـام بأمـر عظيم في هـذا العالم بـدون تظـافـر الجهود.

ولكن الجهـود المتـواتـرة تتطلب ثمنـاً، وهـو الثبـات والمثـابـرة على الاتحاد، بغض النظر عن قضـايا الاختلاف، والإصرار على الاتحاد رغم الاختلاف.

والاختلاف ممـا لا مناص منـه في صفوف البشر، فيحـدث الخلاف بين النـاس رغـم إخـلاص الكل، ولا سبيل إلى النجـاة من الخلاف.

والحل العملي هو أن يعدَّ الناس أنفسهم للاتحاد رغم ألف اختلاف، وأن ينسوا الجوانب الفردية الذاتية لأجل المصلحة العامة الاجتماعية، وأن يتغاضوا عن الأشياء الصغيرة من أجل الأشياء الكبيرة، وأن يدفنوا متطلبات ذاتهم لأجل متطلبات الهدف الاجتماعي المشترك.

وهذا هو علو الهمة وسعة الظرف، ولا يمكن تحقيق مخطط عظيم في العالم بدون هاتين الصفتين.

قضية الحياة

ولدت غريتا غاربو بالسويد في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥، وتوفيت في الولايات المتحدة في ١٥ أبريل سنة ١٩٩٠. وكانت تبحث عن الشهرة فاتجهت إلى عالم السينما، وأحرزت نجاحاً كبيراً كممثلة، لدرجة أنهم يشيرون إليها بوصف معبودة الشاشة».

وحصلت غريتا على الثروة والشهرة معاً بعملها في الأفلام، ولكن هذا سلب منها شخصيتها، فكانت خاضعة تماما لرغبات وأوامر المتحكمين في عالم السينما، الذين كانوا يعيّنون لها كيف تقص شعرها، وماذا تلبس، وكيف تتحدث، وكيف تمشي. وكانوا يغيرون ملامح وجهها، المرة بعد الأخرى، بالمكياج. وكان عليها تدليك جسدها بصورة مستمرة لكي تحافظ على رشاقتها وخفتها. وقد سئمت غريتا من هذه الأشياء لدرجة أنها كانت تبكي وتصرخ في وحدتها، إلا أنها كانت عاجزة عن القيام بشيْ نتيجة سيطرة رجال السينما على حياتها.

ووصل بها الأمر سنة ١٩٤١ إلى الانسحاب من عالم السينما نهائياً، وقضت بقية عمرها وحيدة داخل بيتها إلى أن ماتت عن ٨٤ سنة، فانتهت حياة الشهرة على موت مغمور.

وكانت غريتا تريد أن تموت بصمت، ولكن تمكن الكاتب أنطوني غرونوويتش بصعوبة من حملها على السماح له بكتابة سيرة حياتها وأن تخبره بأحوالها. ووافقت غريتا بعد إلحاحه الشديد بشرط أن يُطبع مثل

هذا الكتاب بعـد وفاتها . وهكذا أُعدَّ الكتـاب ولكن المؤلف مات سنة ١٩٨٥ عن ٧١ سنة ، بينما كانت غريتا لم تزل على قيد الحياة . وتمَّ نشر هذا الكتـاب بعد وفـاتها بقليل في الـولايات المتحـدة بعنوان «غـاربو: قصتها» .

وقد نشرت صحيفـة تايمـز الهنديـة اقتباسـات من هـذا الكتاب في عـددها الصـادر في ٩ سبتمبر ١٩٩٠ . وطبقاً لهذا الاقتبـاسات قـالت غريتـا للمؤلف في آخر عمـرها : «فقـدت إيماني بالناس وحتى بـالله ، الذي وضعني في هذا الموقف بدون أن يجيـب بوضوح على أسئلتي . وأنا أطفوا على ميـاه الحياة بـدون اتجاه وبدون هـدف وبدون معـرفة السبب والمدة التي ستسغرقها حياتي هذه» .

إنها قصة امـرأة تركت الله تعـالى وجعلت غير الله مركـز آمالها ، ولم تشعر بـالسكينة ، وعـاشت هذه الحالةَ مـن القلق إلى أن قضت نَحْبها بعد خمسين سنة .

وما وقع لغريتا غاربو قد يعتبر أمراً في منتهى الغرابة ، ولكن الحقيقة هي أن الكل منا يواجه هذا الموقف مـن ناحية أو أخرى . فالكل يلهث وراء غير الله ، وحين يظفر بطلبه يكتشف أن ذلك الشيء لم يكن جواباً لطلبه ، فقد جعل مقصوده ومطلوبه شيئـاً ما كان ينبغي أن يكون هدفه في حقيقة الأمر .

كل إنسـان يبـدأ مسيرة حياتـه ظـانّـاً أنـه يقترب بسرعة من هـدفـه النهـائي ، وحين يصل إلى ذلك الهدف يكتشف أنــه لم يكن هـدفـاً بل حفرة وقع فيها حاملاً أمانيه وآماله .

درس من التاريخ

تقـول لنـا التوراة أن عـائلـة سيـدنا يـوسف كـانت تتكـون من ٦٧ شخصاً حين وفـدت على مصر بدعوتـه عليه السـلام . ولا يشمل هذا العـدد النساء اللـواتي انضممن إلى أسرة سيـدنـا يعقـوب عليه السـلام بـالمصاهـرة . وجاء مـوسى عليه السـلام بعد وفـاة يوسف بنحـو ٥٠٠ سنة . وحين خـرج بنو إسرائيل من مصر معه كان عـددهم يبلغ مئات الألوف . وتقـول التوراة أنه طبقـاً للإحصاء الـذي أجراه سيدنـا موسى بعـد سنتين من خـروجه من مصر، وهـو بصحـراء سينـاء ، كان عـدد الـرجال القـادرين على الحرب يبلغ ٦٠٣,٥٥٠ رجلاً . وهـذا يعني أن العدد الكلي لبنيـإإسرائيل ، بما فيه النسـاء والرجـال والأولاد والشيوخ ، كان يقارب المليونين .

ومن الواضح أنه لا يمكن أن يصل عـدد أخلاف (٦٧) شخصاً إلى مليـونين بمجرد التـوالد والتنـاسل الطبيعي عبر خمسمائة سنة . لقـد زاد عدد بني إسرائيل بهذه النسبة غير العاديـة من جراء التبليغ . فالمصريون الذين غيَّروا ديـانتهم من جراء تبليغ بني إسرائيل اصطبغـوا بصبغة بني اسرائيل الثقـافيـة . وتطلـق التـوراة على هــؤلاء المؤمنين الجدد وصف «خـراف مخلــوطـة» . وحين خـرج بنـو إسرائيل مـن مصر كـان معهم إخوانهم في الدين هؤلاء .

ونعرف عن بني إسرائيل أنهم كانوا شعباً مغلوباً على أمره ومحكوماً في مصر. وكان المصريون يستخدمونهم كعبيـد وأجراء، بينما الأقباط كانوا علية القوم ونخبتهم المكرمة. أما بنـو إسرائيل فكانوا -في مقابل هذا- محتقَرين ومقهـورين لا أهمية لهم في المجتمع. وتمكَّن بنـو إسرائيل رغم هـذا من التأثير في كثير من الأقبـاط، الذين نبـذوا دين فـرعون وآمنـوا بـدين موسى. وهـذا يكشف أن الـدين الحقّ قوة أكبر من كل القـوى الدنيويـة، وأن الدين الحق يستقطب الناس حتى في أحـوال يبدو فيها ضعيفاً عاجزاً عن التأثير في الناس.

وطلب الـدين الإلهي كـامـن في الفطـرة البشريـة، وهـذا هـو السر لقوته. فالدين الإلهي يغزو قلـوب البشر بقوته الذاتية وليس بسبب قوة المؤمنين القومية أو المادية.

شاهدان

كان الحاج إمداد الله المكي (١٨١٧ - ١٨٩٩) من كبار مشايخ الهند. وكان أسلوبه أنه كلما نقل إليه شخصٌ ما خبراً سيئاً حولَ شخص آخر، بادره قائلاً: اِئتني بشاهدين. وحين يفشل ذلك الشخص في إحضار شاهدين تصديقاً على دعواه، كان يُنهِي القضية في مكانها، قائلاً: لاعبرة لكلامك؛ لأنك لا تملك شاهدين لتصديق ما تدعيه.

وهذا هو عين الأسلوب الشرعي. وقد وضع الإسلام مبدأ الشهادة لإثبات الدعاوى في المعاملات؛ أي أنه من المطلوب من كل مدعٍ في المعاملات والقضايا الأخرى المماثلة أن يأتي بشاهدين، أما في قضية الزنا فالمطلوب أن يأتي بِأربعة شهداء.

ولو وجّه شخص ما تهمة ضد الآخر فمن مسؤوليته -انطلاقاً من المبدأ الشرعي القائل بأن البيّنة على المدعي- أن يقيم الدليل على ما يدعيه، وسيكون كلامه بلا معنى لو أخفق في تقديم الدليل الشرعي.

وقد انعدم هذا المبدأ في العصر الحالي نتيجة فساد الأمزجة. والإنسان لا يرى أن هناك حاجة لأي دليل مطلقاً للإيمان بأي شيء ضد شخص يشكو منه أو يعاديه، وهو يعترف بأي شيء يقال ضد ذلك الشخص، فلا يطلب بيّنة ولا شاهدين.

وقد عمَّ هذا الفساد حتى في الخواص ناهيك عن العوام، وحتى «الأكابر» ليسوا استثناءاً من هذا. ولم أسمع أنا على الأقل في حياتي عن شخص أن تهمة وجهت أمامه ضدَّ أحد معارضيه فطلب من المُتَّهِم أن يأتي بشاهدين لإثبات اتهامه وإلا رُفِض كلامه.

وكانت العظمة تعني في قديم الزمان ما يعكسه المثال الآنف الذكر، أما اليوم فقد تغير مفهوم العظمة، فأكابر القوم يصدقون أخرق التُّهم دون شاهد ولا دليل، ورغم ذلك لا تتأثر عظمتهم، بل يظلُّون شخصيات مقدسة في نظر الناس.